892.73:F15jA

فهمي ، احمد

جناية اوربا على نفسها والعالم.

MAR 17 9436

JAN 13 A988

JAN 17

892.73
F15jA

JA 31

DEC 1

A S.

89278
F157jA
c.1

جناية اوربا على نفسها والعالم

« كتاب صحي عصري ادبي اجتماعي عمومي نسائي روائي »

بتأليف

احمد فهمي

Cat. Dec. 51

ثمن النسخة ٣٥ غروش صاغ

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

77917

مطبعة المعارف بأول شارع الفجالة بمصر
سنة ١٣٢٤ — ١٩٠٦

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARY

بسم الله الرحمن الرحيم

(اهداء الكتاب)

الى الجنس اللطيف

اليكنّ أيتها السيدات أمهات العالم أهدي كتابي هذا طالباً منكنّ قراءته والعمل بموجبه مقابل إهدائه اليكنّ

المؤلف

أحمد فهمي

كلمة

« في التأليف والتعريب »

التأليف بمعناهُ المتعارف بيننا هو الكتابة في موضوع ينسج الكاتب برده بايدي فكرته ويحيكه بأنامل بديهته ويزينه بقدر امكانه وعلى حسب مقدرته من النباهة والبلاغة او عكسهما زينة قد تعجب القارىء فيقبل عليه وقد لا تروق لديه فلا يولى وجهه اليه

والتعريب هو نقل عبارة من لغةٍ اجنبية الى اللغة العربية لا يتكلف المعرّب في ذلك اكثر من سبك النقل واحكام زينة الالفاظ وحسن الانشاء على قدر قوته بدون ان يمس جوهر الموضوع والا كان متصرفاً .. وعليه كان التأليف اهم من التعريب وافيد واكثر نفعاً وكان المؤلف اكثر علماً واغزر مادة واعلى درجة

والمؤلف عادة يضع مؤلفه في قالب السبك الذي يروق في عين امته ويقع موقع استحسانها وكثيراً ما يكون التأليف لصالح القوم الذين وضع المؤلف لهم لحضهم على منفعة او استلفاتهم لرأي او صدهم عن قبيح

ولما كان من المعلوم ان المستحسن عند قوم قد يكون المستقبح عند آخرين وبالعكس وما يلزم لامة لا يلزم لأخرى وما يجب على بلد يسقط عن غيرها وهلمّ جراً . وجب ان لا يكون من الفائدة نقل الكتاب من لغة الى لغة أخرى الا في العموميات او بقدر حاجة الامة المنقول الى لغتها واكثر ذلك ما يكون في الكتب السياسية أو العلمية ولكنها لا تخلو من بعض تصرف يجعل

موضوع الكتاب مقبولاً لدى القراء المستقبلين

وعليه وجب العلم بان التأليف في اللغة العربية من ابنائها خير من التعريب في كثير من الامور خصوصاً في الايام الحاضرة وفي مصر على الاخص حيث نحتاج الى اقلام الادباء الذين يكتبون ما يوافق مشاربنا واخلاقناوعوائدنا ويؤلف بين قلوبنا ويوحّد كلما تناوبرى ملكاتنا ويثقف عقولنا ويقوي عزائمنا ويشد ازرنا ويثبت اقدامنا ويدفع بنا الى صفوف الرجال ويقدمنا الى الامام فنقف بين ائمة هذا العصر التمديني فنحظى بما حظوا به من الرفعة والسؤدد والعزة والمكانة الرفيعة والقوة والنفوذ والحرية والاستقلال والمزايا العديدة لاننا نحن اعرف بادوائنا من غيرنا وفي قدرتنا تشخيص امراضنا اكثر من الاجانب عنا وهم بعيدون منا وانما يكتبون لاقوامهم ما يوافقهم فمن العار ان ننقل كتابتهم الينا ولا نكتب لقومنا ما يوافقنا واي عار

والذي يؤسف عليه ويستوجب التعنيف غير انصباب ادبائنا على التعريب كونهم لا ينتقون الموضوع بل هم يصرفون اوقاتهم الثمينة ويجهدون قرائحهم الزكية في تعريب اي كتاب تلقيه الصدفة بين ايديهم بلا انتقاء ولا اختبار سواء كان موافقاً لنا او غير موافق ولكني لاألوم المعرّبين على ذلك لان لهم العذر فيه حيث لم يقبلوا عليه كل هذا الاقبال العظيم الا لما آنسوه من انصباب القراء منا على كل معرَّب وابتعادهم عن كل مؤلف وهو من حسن حظ الاجنبي وامتيازه الذي نألم منه وهذا اقبح ما نميل اليه . كأن الاجنبي ملك ولو كان ابليساً وعمله شريف ولو كان خسيساً

فهل لا يعلم المصري انه بحبه للأجنبي نفَّر أخاه منه وأضعف عزيمته بل أماتها وهي خسارة عظمى ومصيبة كبرى كيف لا وقد صار حب التعريب والمعرَّب سبباً في خور عزائم الادباء وتركهم التأليف حتى ضاعوا وخفى اسمهم من بين النبهاء القادرين وصار المصري معروفاً بضعفه وقلة تنوره وعدم تعلمه وهي معرفة عن جهل وحكم من غير تدبر اذ لو فتح المصري لاخيه ذراعيه ورحب بتأليفه واقبل على مؤلفاته وغض عما يعرَّب له لازدحم ميدان الانشاء والكتابة وتماوج بحر التأليف بجواري الفصاحة وتزين جيد الادب بعقود درر البلاغة واصبحت مصر عكاظ القديمة بما يعرض فيها من كتب الادب الحديثة ولكن انَّى لهذه الامنية ان تتحقق ونحن على هذا الانشقاق والانقسام بل متى نحب خير الامة ونحن في هذا التنافر والخصام فاللهمَّ اللهمَّ وفق بين قلوبنا وعجل لها التحابب والالتئام

واذ قلت ان المستحسن عند قوم قد يكون المستقبح عند آخرين وبالعكس وجب ان اقدم دليلا عليه واراني لا اتجشم صعباً فيه فهو ابن اليوم حديث قريب ليس ببعيد

فمن تتبع قراءة بعض الروايات المعربة التي تنشر في مصر تباعاً تجلت له مضار التعريب بأجلى مظاهرها وتمثلت له عوائد الاجانب واخلاقهم ومستحسناتهم مخالفة لعوائدنا واخلاقنا ومستحسناتنا ولا نذهب بالقارىء بعيداً او نقرأ له كل الروايات المعرَّبة باقلام الادباء لنثبت قولنا ونعزز دليلنا بل يكفينا ان نتصفح امامه رواية او اثنتين من الاخيرات القريبات فلنقرأ سطراً من رواية اهواء الشبيبة وعشيقة الملك

قرأنا ففهمنا ان اهواء الشبيبة انتهت بخجل وعار وفضيحة ورذيلة وفساد أخلاق وقلة أدب وتهذيب وعدم شرف وتعليم وخفر ذمة وقسم وثلم عرض ونكث يمين واعمال يحمر من ذكرها وجه فتاتنا الشرقية ونخاف منها على أخلاقها وعقول شباننا أن تفسد

وابتدأت حكاية عشيقة الملك التي عرفناها في قصة اهواء الشبيبة والتي تقلبت بين اكثر من عاشق بقتل العواطف الشريفة وموت الشرف وتشويه وجه الحماسة والحمية وتضحية المروءة والنخوة وضرب عرض الحائط بعزة النفس والشهامة في سبيل الدرهم الفاني مما لا يأتيه ادنى الدون من الشرقيين ولا يقبله صعلوك من اوباش مصر. فهل بتعريب هذه الرواية وامثالها ينال المعرّب فخراً واقبالاً واستحساناً ام العكس ولكننا عميٌ عن معائب الاجنبي وهذا من بعض امتيازاته في الشرق

ألا يجدر بنا ان نضع رواية او على الاقل كلمة في آخر كل رواية من هذا القبيل نقبح بها امثال هذه القبائح ونظهر بواسطتها المعائب التي تكون فيها كي يتنبه لها الشبان واطفال المدارس الذين يقرأونها فلا تنغرس في اذهانهم ويقبلون عليها ان كان ولا بد من التعريب واننا لا نحيد عنه ولا نميل الا الى كل مصدر اجنبي ـ أما ان كان القصد تمثيل قبائح الافرنج امامنا وتقبيحها لنا وهو ما لا يظهر من قصد المعربين فاننا لم نبلغ درجة الفلسفة العالية والتعليم الصحيح . . . . . واليك فصلاً من رواية عشيقة الملك

«قال الكونت دي باري لاخيه (وهما من اشراف فرنسا وعظمائها)

ـ هنا فتاة جميلة نريد ان نعقد بينك وبينها عقد زواج شرعي ولكن

من المحال ان تزف اليك

فجلس غليوم على مقعد بالقرب من اخيه وقال اود ان ارى الفتاة فربما لاتشغل حيزاً من قلبي

- لاتقل انها لاتروق في عينيك والا القاك الملك في ظلمات (سجن) الباستيل

- ماذا تقول يا أخي

- اعرني السمع قليلاً (وبعد توبيخ طويل قال الكونت لاخيه) :

ألاتعلم انك اذا اقترنت بفتاة يعشقها الملك ويفضلها على اجمل غواني باريس ورضيت ان تضيف الى اسمها لقب عائلتنا تفيض عليك سحب النعم وتعود الى بلدك وانت من اكبر الاغنياء

- ولكن ألاتعلم يا أخي ان عائلتنا شريفة فكيف ارضى ان اقترن بفتاة اتركها في احضان الملك واعود الى بلدي قرير العين ببدرة عين

- يا لك من غبي جاهل

- انت تهينني يا اخي

- نعم لانك تغلق في وجهنا باب مستقبل زاهر نضير

- وهل نسيت يا اخي اني مقترن بامرأة جميلة الخلق والخلق

- لا ازال اقول انك جاهل غبي ... تقول انك متزوج وهذا ما يمنعك من قبول الفتاة التي يأمرك الملك بالاقتران بها وكأني بك تجهل ان الثروة في هذا العصر هي الشرف والمجد ولا قيمة للانسان بغيرها

- ولكن الثروة لا تكفي

ـ ماذا تريد فوقها ؟

ـ اريد لقباً رفيعاً من القاب الشرف

ـ لو لم تعارض ايها الغبي لقلت لك ان الملك اطال الله بقاءه سيمنحك لقب حاكم عام في احدى مستعمراته

وعلى هذا قبل اخو الكونت ان يكون زوجاً [1] بالاسم لعشيقة الملك وان لا يدخل بها بل يتركها في احضان الملك لانها حبيبته وهو قوّاده نظير بعض دريهمات فانية والقاب دنيوية فارغة مما لايتأتى في الشرق من اقل حقير لاعظم امير . ففي هذه النبذة من القبائح والنقائص ما فيها وهكذا اذا تتبعنا القصة من الاول الى الآخر نرى الفضيحة والرذيلة وقتل الفضيلة والهمة . فهل يليق بنا تعريب هذه الروايات وامثالها كغرام نابوليون ونشرها بيننا ونحن في اول نهضتنا وابتداء تعلمنا . ألسنا في حاجة لما يرشدنا الى الإباء وعزة النفس لا لما يعلمنا ان الثروة هي الشرف والمجد اي ان نقتل الشرف ونذبح المجد ولو بسكين الخسة والدناءة في سبيل الثروة فلا حول ولا قوة الا بالله

ورب قائل يقول ان المعرب اراد وصف ما كانت عليه اوربا من الاستبداد فأقول لا فائدة لنا من ذلك وان المؤلف نفسه لم ينشرها بين قومه الا لعلمه بتمام معارفهم وحريتهم وتعلمهم وتمدنهم وتقدمهم فاراد تمثيل الحالة الشنيعة الاولى لهم ليقارنوا بين ماضيهم وحاضرهم الزاهي الزاهر ولانه لا يخاف عليهم فساداً ولا تقليداً اما نحن فبعكس ذلك يلزم

(١) وهو متزوج كما علمنا من كلامه فهل بعدها جناية على الشرف والدين

الآن تذكيرنا بالمجد السالف وتشويقنا الى عزة نفوس الاباء والجدود وما ناله الشرق في القدم من التقدم وما داهمه في هذه الايام من المحن والاحن لا تلقيننا المفاسد والرذائل لئلا يعلق منها شيء بذاكرتنا فيدنس اخلاقنا ونحن في مدارس تقدمنا التحضيرية وربما ظن الاطفال ان هذه هي التعاليم التمدنية الحديثة فيعملون بها

اما اذا اردنا استفزاز الهمم بما استحوذ عليه الغرب من العز الطارئ والسيادة الحديثة فيكون ذلك في قالب مقبول لدينا مطبوع على عوائدنا واخلاقنا ومقتطفات مما يثير عواطف العمل والجد والاجتهاد ولا يكون ذلك الا بقلم التأليف لا التعريب .. واقبح مما تقدم ما جاء في روايتي الساحر الخالد والانتقام الهائل ولهما عندي اعتراضات كثيرة لا يسع المقام ذكرها وكفاها انها لا توافق المصريين عموماً والمسلمين خصوصاً وعلى الاخص من وجهة اضرارها بافكار اطفال المدارس واضطرابها لعقولهم وبالجملة فانها لم تكن لتليق بالتعريب والنشر وان كان ولا بد من شيء من قبيلها فكانت حكايات الف ليلة وليلة اضبط في السبك واقرب للعقل واشوق للنفس واكثر ذكراً للسحر والسحرة والجن مما حدّث به فورستر عن نفسه

وحيث قد تقرر ذلك وعرفنا فائدة التأليف فنرجوا شباننا الاقلاع عن فكرهم في التعريب وميلهم اليه ونناشدهم الوطنية ان يشدوا أزر التأليف بمساعدة المؤلفين بترويج مؤلفاتهم فيخدمون الوطن والمواطنين ولهم الشكر من الانسانية والبلاد والعباد . . .

(تمهيد)

الجناية بمعنى الجرم والذنب والاثم فالرجل جنى ذنباً واقترف جرماً : وجنايات اوربا وذنوبها واثامها كثيرة فاذا تتبعنا كل ما تعمله وتأتيه لا يكاد يخلو من جناية تظهر فيه ظهوراً تاماً . واعمالها تكون اما موجهة الى الشرق تارةً واخرى الى احدى بلادها وتارةً الى نفسها وطوراً الى نفسها والعالم وعليه فالجناية مصحوبة طبعاً بتلك الاعمال ومرافقة لها في اتجاهها الى ما تتوجه اليه

ومن تفحص التاريخ وجد هذا القول صريحاً صحيحاً . فاوروبا عند ما اشتعلت نار المدنية في الشرق وانارته بنور التقدم والعمران كانت هي تائهة في ظلمات الجهل وخرائب الوحشية حائرة بين الاعشاب تتغذى منها وتسكن الجبال والكهوف حتى اذا دب في جسمها سيال كهرباء الانسانية والتمدن والعرفان كشَّرت عن انيابها التي كانت لا تزال مدببة من التوحش السابق واخرجت مخالب تلك الهمجية البربرية وسطت على الشرق وابنائهِ نخاتتهم وغدرت بهم وجنت عليهم بسوء فعلها وقبيح عملها اعظم جناية وما زالت الى اليوم واعمالها للان لا تخفى على احد ولقد صدق فيها قول القائل [١]

« ان جاهلية الافرنج كانت جماعة من البرابرة المتوحشين يأهلون

---

(١) فرنسيس افندي فتح الله مراش نقلاً عن مجلة الجنان للبستاني

شمالي اوربا يسكنون المغاير وثقوب الارض . ويأكلون بعضهم البعض ويلبسون جلود المعزى . وما كان منهم من الى عم وخال يعزى . وكانت لغاتهم لغماً وتمتمة . والحانهم زئاطاً ودمدمة . وكانوا يشاركون الوحوش في اعمالها . ويفعلون كافعالها . وما كانت لهم عقول تردع . ولا اداب تمنع . بل ارحام تدفع . وارض تبلع . فلا شرع ولا كتاب . ولا رأي ولا صواب . . امّا جاهليـة العرب الكرام . فهم امة من ذرية اسماعيل عليهِ السلام . كانوا يقطنون اجل الارض وازهرها . واطيبها واحبرها . وكانوا يعيشون في المضارب والخيـام . ويرونها افضل مقام . ويقتاتون من ثمر الارض ولبن النوق . ومن اللحم المشوي والمسلوق . ويلبسون الديباج والخز . والعهن والقز . فلهم السرابيل والقراطق . والغلائل والمناطق . ولغوانيهم الدر والعسجد . والياقوت والزبرجد . فهم الذين اتبعوا الجود والكرم . وابدعوا حفظ الذمم . وغنّوا بالنخوة والمروّه . وسنّوا مراعاة الاخوّه . وحيزوا بين الحلال والحرام . وميزوا ما يرام مما لايرام . واشتهروا بعزة النفس وكرم الجنس . وحازوا البسالة والشجاعه . واحرزوا نظام الجماعه . وهم اول امة سمت بعرضها وحرمتها . واقسمت بشرفها وذمتها . وكفى العرب تزكيةً لشهادة الحق بحقيقتهم المنيفه . بدائع لغتهم الشريفه . فيا لها لغة انافت على كل لغات البشر . بما فيها من الجواهر والدرر . فهي العين وغيرها الاثر . على ان بلاغتها جلّت عن المثال . وقد ضربت بفصاحتها الامثال . فهي الشبح وغيرها الخيال . وكل لغة قد سجدت لسناها . وكانت فقيرة بالنسبة الى غناها . ودليل الامة لغتهـا

وعاداتها . وسجاياها وصفاتها . او ما يكفي جاهلية العرب شرفاً وفخراً . وسمواً وقدراً . ما ظهر بينهم من الشعراء والفصحاء . والحكماء والصلحاء . فمنهم قس الفصاحة مطران نجران . اول من قال اما بعد ومن فلان الى فلان . وآمن من قبل عهد الرسالة الشريفة بالبعث المقرر . وقال البينة على من ادعى واليمين على من انكر . ومنهم امرىء القيس الذي نفث شعرهُ بالسحره . وحسد درُّ العقود درره . وزهير وطرفة العبد . وكعب وابن كلثوم وعنترة العبد . والنابغة الذبياني . والفرزدق وابن هاني . واياس الذكآء . وحاتم السخاء . ومعن الحلم وعمرو الاقدام . ثم الصحابة الكرام . فما اجهل من انكره . قتل الانسان ما اكفره

اقول فمن هاتين الجاهليتين تعرف الانسانية اين * * * * *

* ولما اسلمت العرب وحضرت . وهاجمت القياصرة واستظهرت . لم يكونوا محضوضين من الشهوات والاطماع . ولا عن خبث الطباع . بل ناهضين بأمر الدين ومن قبيله . الى المجاهدة في سبيله . وهكذا ساروا وسلكوا . وسادوا وملكوا . ثم نبغوا بالعلوم والفنون . واتوا بكل المتون . وشادوا المدارس . وجادوا بالنفائس . حتى همى غيثهم وغوثهم على سائر الامم . وروى كل النسم

وما زالوا ان دخلوا في حماية اشرف صولجان . وهو قضيب سلاطين الزمان . وملوك الاوان . آل عثمان . جلَّت بجلالهم سلطنة الخلافه . وانافت على كل منيف اي انافه . حتى درأت الدراري سطوتهم . ودكت الرواسي قوتهم

فلا تخالوا [١] ان العرب سقطوا الآن . او رجعوا في خذلان . لان امة نظيرهم لاتسقط . والى الحضيض لاتهبط . واذا كان ظل عزائمهم قد تقلص فغدركم [٢] السبب . وطالما اودى العوسج بالتين والعنب . فاذكروا وقائعكم ايها الصليبيون . وماعثتم وعبثتم من حلبٍ الى صهيون * *

* * * * * * * * * * *

اذ كان العرب لاهين عنكم بآدابهم افراداً واجمالاً . فاخذتموهم اغتيالاً واحتيالاً »

وكلنا وجميع العالمين لاننكر التاريخ فهو اصدق شاهد على ان الشرق خدم العالم بصدق نية واخلاص حباً في تهذيبه وتمدينه حتى كلّ ساعده فطلب الراحة من تعب الجهاد ونصبه فخانه الغرب بان هجم عليه في غفلته فكان بذلك جانياً اثيماً لا فاتحاً مصلحاً صالحاً كما يدعي زوراً وبهتاناً عظيماً . يكذبه ما يأتيه من الجرائم والجنايات الشنيعة فيما يفتحه من البلدان بظلمه العباد واجتهاده في تغيير الاديان مما كانت العرب تترفع عنه وتعلو علواً كبيراً .....

اما وقد عرفنا ذلك فلا ينكر احد ما تأتيه كل بلد من بلاد اوربا ضد الاخرى من الفظائع والجنايات والحروب مدفوعة بيد حب الاثرة والتفرد بالنفع والسيادة ولا يموّه على عقولنا اظهارها خدمة الانسانية او حب تمدين البشر فانها دعوى قام الدليل القاطع على بطلانها وكفى غروراً بها والسلام

---

(١) يخاطب الافرنج (٢) والغدر جناية لا تغتفر

واما جناياتها على نفسها فباحداثها المحدثات المستقبحة وابتداعها المبتدعات المستنكرة وتخلق اهلها بالاخلاق المستهجنة باسم الحرية تارةً وباسم غيرها تارةً اخرى مما كان لا يوجد بين ادنى الدون من الشرقيين ودليلنا على ذلك اعتراف الكل منهم ومنا والاقرار المستديم ولوان محاسنهم في اشياء اخرى لا تنكر ويحق الافتخار بها

وقد لحقت جنايات اوربا العالم لانتشار اهلها في الاصقاع فحدثت العدوى لمن خالطهم ولست في حاجة لذكر سوء النية السياسية التي يقصدون بها ايقاع العوالم في حبائل اعمالهم او تقليد قبائحهم لشيء في أنفسهم يقضونه مما لا يخفى على احد . ولو لا اني الآن اكتب في غير السياسة لاوضحت كثيراً من جنايات اوربا على العالم سياسياً . اما واني اكتب هذا الكتاب الصحي فاريد توضيح ما تجنيه اوربا على العالم ونفسها احياناً حتى من سبيل الصحة ومن طريق الازياء والزينة . فقد اخترعت زياً بسيطاً من الازياء التي تلبس ويتزين بها ولكنه كما سنعلم كان سبباً في ضعف اجسام لطيفة وخور عزائم رقيقة وقتل نفوس شريفة

ولقد اوردت الكلام والادلة على نمط يعجب الكل على ما اظن واسلوب سهل الفهم وذوق شرقي وغرض شريف فهي للشعب الشرقي باجمعه لا تخالف مشاربه ولا تخرج عن عوائده ومستحسناته ولا تخجل فتاته ولا تفسد فتاهُ فمساي انال الغرض الوحيد من قيام الادب من سقطته فقد مرت عليه السنون والاعوام وهو خامل وأثم ذلك علينا فلنكفر ونتوب ان الله يحب التوابين

المؤلف
احمد فهمي

الفصل الاول

« حالة من تمكن الهوى من قلبه »

قالت الأم فوحبي في بقائك لو لا ما رأيتهُ في عينيها من الذبول وجسمها من النحول ووجهها من الاصفرار لوافقت على عقد خطبتها لك

فقال فريد ولوائح الغضب تلوح على وجهه وعوامل الاحترام لوالدته تكسر من حدته . . كفى ايتها الوالدة الحنونه فلست في شك من حسن نيتك وعملك على راحتي . . ثم سكت قليلاً وحول مجرى الحديث حتى أتى ميعاد النوم فانصرف الى فراشه . والله يعلم كيف قضى ليلته

تصور أيها القارىء الكريم . رجلاً من أغنى الاغنياء . أقبلت عليه السعادة وأحاطه الهناء . وآتاه الله من نعم العافية والصحة وخلو البال ما يندر اجتماعه حول انسان واحد بل ان شئت قل أنه مستحيل

فلما رأى هذا الغني الكبير . ما ملك من المال الكثير . وما عنده من النعم الوافية . وما يتمرغ فيه من تبر العافية . أراد أن يجمع اليه ما يشتهيه من الملذات .

ويقضي ما يرغبه من الحاجات . فامعن نظره . وأعمل فكره . فلم يرَ أحسن من طاعة الله . والعمل بما يحبه ويرضاه . فعكف على الطاعة . واعتكف عن الخلاعة . وعمد الى أجمل العادات . وأشرف الفتيات . فاخذها لنفسه حليلة . وعاش معها عيشة جميلة . يتقلبان في حال الرفاهة ويسبحان في بحار السعادة . وكان له بيت عظيم البنيان . جميل التنظيم

عالي الاركان . لكنه في قلب المدينة . تضايقه ما حولهُ من المباني المتينة لذلك لم يرق في انظاره . ولم يقع موقع استحسانه . فأخذ في البحث عن موضع يوافقه . ومكان يروق له . ليبني فيه بيتاً يسكنه مع زوجته المحبوبة التي كان لا يصبر عنها دقيقة . فيتمتع معها بما رزقهما الله من الخيرات . مما كان يزداد وتحيطه البركات

وفيما هو يبحث ذات يوم بعد العصر . اذ وصل به السير نحو البحر . فانتعش بهوائه العليل . وتمعن في منظره الجميل . فوقف عن المسير . واخذ في التفكير . فعمل في نفسه حساب امواله . وقرأ في لحظة دفاتر احواله . وراجع في ذهنه قوائم ثروته . ووقف على ماله وعظمته . فرأى انه لو شاد بيتاً داخل هذا المـاء . ليتمتع بصحة الهواء . وعاش عيشة الترف والهناء . وصرف كذا من الاموال . معتبراً مصروفه على أحسن حال . وعمّر في الدنيا مائة وعشرين . وخلّف من النسل ثلاثين . نخصهم بعد وفاته . ما يحفظ حالتهم كحالته . ويعيشون به كعيشته . فاستخار الرجل مولاه . وسأله أن يبلغه مناه . وشرع في العمل . ونال الامل . ولم يمضِ العام . حتى قارب البيت على التمام . ففرش فيه أحسن المفروشات وأوجد به أغلى المنقولات . ثم نقل اليـه زوجته وأمواله . وحسّن الله به حاله . وكان قد وُلد لهُ ولد وبنت في الاثناء . فصار حقاً أسعد السعداء

حقق النظر أيها المطالع في حالة هذا الغني السعيد . وأمعن نظرك جيداً في حالته المرضية . وعيشته الهنية . ترى انها عيشة لا يسمح الدهر بمثلها . وأنه بأقل منها لبخيل . ثم افتكر قليلاً وانبئني بحالته لو لوى عليه

الدهر فمضه بنابه . وافترسه بمخلبه . وانه لهو الدهر الخؤون الذي لا يسلم من عدوانه أحد

قد تأخذك الدهشة ويتولاك الذهول لان الحاله خليقة بأكثر من ذلك وهي هي نفس الحر رقيق الشعور تنقبض لسماع المصائب . خصوصاً اذا كان عن عزيز ذل . وغنيّ افتقر . وعال انحط

تسلط البحر على ذاك القصر الجميل فنخر بنيانه كما تُنخر العظام . وفعل بحجارته فعل الاسقام بالاجسام . حتى اذا كانت ليلة شؤم . وأهل القصر يتمتعون بلذيذ النوم . هادئو الفكر . لا يخافون غدر الدهر . خرّ بهم البناء فابتلعه الماء . وأصبح الصباح . ولا يُسمع لهم صياح . وذهبوا كأنهم لم يكونوا شيئاً مذكوراً . وغرق الكل أناثاً وذكوراً

والدهر ذو قلب من حديد . وفكر عنيد . فعل فعلته الشنيعة . وجنايته الفظيعة . ولم يترك الرجل يموت غريقاً فيقضي مع زوجته وأولاده الذين كان يخاف عليهم من لطف النسيم أن يؤثر بصحتهم . ولم يدعه يتأبط بذيه ويحتضن زوجته وينام بجانبهم النوم الابدى . بل أخذهم منه واستلّهم من بين يديه . واختلس امواله من خزينته . وأخفى قصره . ودرس معالمه . وشق لجميع ما يملك البحر . فغاص الكل فيه . وكانت كامل ثروته ذهباً جمعه في خزائنه .. ونجاه من الغرق وهو خير لديه . ومنحه الحياة وهي شر عنده وشقية في عينيه

فخرج البائس التعيس يعصر ماء السعاده عن ملابسه ليعرضها على ريح الشقاوة . وجلس على شاطىء البحر يندب سوء حظه ويبكي ايام

سعادته فتصور ايها القارىء الكريم ما حل بهذا البائس المسكين وقل لي ماذا تكون حالته وهي هي حالة فريد بطل روايتنا في فراشه تلك الليلة لسماعه من والدته عدم موافقتها على عقد خطبة حبيبته لهُ . وهي حالة من تمكن الهوى من قلبه . ولقد طال بك المطال . وكثر عليك المقال فاظنك مشتاقاً لذكر فريد وما حل به وما كان حاله بعد تلك الليلة التي زاد ظلامها في عينيه

الفصل الثاني

« فريد »

هو ثمرة قران ابوين شريفين من اكبر عائلات مدينة السويس تربى تربية عالية تناسب مقام عائلته الغنية فدخل المدارس وتعلم علومها وشب على حب العمل والاجتهاد وتحصيل المعارف . ولم يثنه عن التقدم في طريق التعليم موت والده الذي تركه يافعاً . فكفله عمه وأحسن تربيته وراقب الله في تهذيبه وصان امواله وحفظ ثروته وصرف عليه من ميراثه حتى أتم دروسه . ولم يطغه حب المال فيطمع في تركة اخيه ويحرم منها ولده ويفسد تربيته كغيره من اوصياء الايتام الذين عاكسهم الدهر فابعد والديهم عنهم وأسلمهم لقوم من الجبابرة قلوبهم كالحجارة او اشد قسوة وإن من الحجارة لما يتفجر منهُ الانهار وان منها لما يشقق فيخرج منهُ الماء وإن منها لما يهبط من خشية الله (١)

(١) قرآن شريف

ولما أتم فريد دروسه الابتدائية والثانوية مال بكليته لفن الطب واحب ان يكون طبيباً فكتب طلب الدخول في مدرسة هذا الفن الجميل فساعده الله على تتميم مرغوبه وسهل عليه اسباب الدخول فقضى بها مدة الدراسة على احسن ما يجب وفوق ما يتمنى الانسان فكان مثال الجد والاستقامة وتخرج منها حائزاً شهادتها النهائية مكتسباً رضى الاساتذة مزوداً من اخوانه بشدة تعلق قلوبهم به وحبهم له على حسن ما عاشرهم ولطف ما قضى معهم من ايام التلمذة

وتعين توًا بوظيفة طبيب في ادارة مصلحة الصحة بالقاهرة ونال جواز تعاطي مهنته الشريفة فمكث في منصبه هذا غير بعيد وألحق بأحد مراكز المديريات بالوجه القبلي . فكان لا يدع فرصة تمر او لحظة تكر دون ان يعمل فيها عملاً يعود على الفقراء بالفائدة فجعل من نهاره وقتاً يداوي فيه المساكين مجاناً ويصرف لهم الدواء بغير أجر فاكتسب رضى الله وحب الاهالي وعلت مكانته في قلوبهم درجات

ثم رأت مصلحة الصحة مكافأته فجعلته طبيباً بمستشفى مديرية اسيوط فقام الى مقره الجديد وقد شيعه اهالي مركزه القديم بالاسف على فراقه والفرح بترقيته

ولما وصل هذا الطبيب الحكيم اسيوط تلك المدينة الزاهرة ورأى عظمتها وحسن نظامها ورياضها ومنتزهاتها البديعة وما حوت من الرفاهة والعمران وما بها من الشوارع الجميلة والمباني الشاهقة مما تضارع به بلدته السويس وتقارب به العاصمة استحسن استدعاء والدته لتقيم معه وكان لم

يدعها من قبل لعدم استحسانه وجودها في مركزه القديم اذ لم يكُ يعتبره الا بلدة من بلاد الارياف لا تروق في نظر عائلته ولا تعجب السكنى به والدته تلك التي تربت في الرفاهة والنعيم

فبحث عن منزل في المدينة يليق به فوجد غير قليل الا انه استصوب السكنى بجوار محل اشغاله بالمستشفى وهي في الحمراء على شاطيء النيل على بعد ساعة من المدينة

والحمراء لأسيوط كالجزيرة للقاهرة يهرع اليها المتنزهون قبل الغروب او في الصباح وفيها من الاندية الكبيرة والمحال النظيفة والطرق المنتظمة والحدائق المتسقة والابنية الفاخرة والقصور الشاهقة ما يعد في الصف الاول من امثالها في العاصمة ... وقد تكون الحمراء أحسن من الجزيرة موقعاً وألطف منظراً وأروق متنزهاً لملاصقتها للماء تماماً وترتيب ابنية المنازل على خط مستقيم أمامها الحدائق الجميلة وعدم الزحام وانقطاع الضوضاء وهدوّ المكان .

فأختار فريد منزلاً جميلاً وفرشه بما يليق بمقامه من المفروشات الثمينة وجاءت والدته وعمه وبعض عائلته للزيارة والرياضة فأقاموا ما شاؤا وعادوا الى منازلهم مسرورين معجبين بعظمة المدينة وحسن موقع الحمراء منها

فلم يبقَ معه غير والدته والخدم فعاش عيشة رغد وهناء رافلاً في بحبوحة وظيفته السامية سابحاً في غزير ثروته الطائلة لا تنغص عيشه الاكدار ولا تقلق باله الافكار . فكان يبكر من نومه فيقصد شاطىء النيل

يمتع نفسه بالهواء ويسرح طرفه في الفضاء حتى اذا قطع برهة عاد الى منزله فتناول ما اراد من اللبن او غيره مما أعد لفطوره ثم نزل الى المستشفى فأدى واجبه وباشر عمله

وكان احياناً يكتفي بالرياضة صباحاً في حديقة منزله فينزل اليها بملابس النوم يتمشى الهوينى ذهاباً وإياباً أو يجلس على مقعد من تلك المقاعد الخشبية التي وضعها في طرقات الحديقة لنفس هذا الغرض ايام ما يريد قطع زمن الرياضة فيها

وكان هذا الطبيب والحق يقال آية الظرف وعلامة اللطف وحسن السمعة والشهرة بطيب الخلق حتى اكتسب حب أغلب سكان البلد وان شئت قل الكل وتعرف بكثيرين من وجهاء المدينة وكبرائها واشرافها العديدين ولكنه اصطفى منهم واحداً اتكل في الإخاء عليه ومال بكليته اليه فلا يقطع اوقات فراغه الا معه ولا يمضي سهرته الا بصحبته وقد أخلص كل منهما الود لأخيه وعاهد الله على صدق الولاء وحسن المعاملة وعاشا قانعين بنفسيهما عاملين بقول القائل الحكيم

واذا صفا لك من زمانك واحد فهو المراد وعش بذاك الواحد

ولكنهما لحكمتهما وثاقب فكرهما لم يكونا معتزلين عن باقي اخوانهما بل هما معهم كعادتهما يردّان الزيارة لمن يزورهما ويقابلان ببشاشة من يقصدهما

وكان هذا الصديق الحميم والصاحب الصادق يدعى ابراهيم .. ولا أثقّل عليك ايها المطالع بذكر الالقاب فعافني منها عافاك الله

وابراهيم من سراة القوم واغنياء المدينة فلما التحمت أطراف المحبة واتصلت عروة الصحبة بينهُ وبين فريد صار يرسل له كل يوم بعربته الخصوصية يطوف بها محال عيادته العديدة حتى اذا انتهى منها مرّ عليه في طريقه فاما أن يتناول الغذاء في منزله ويقضي معه زمن القيلولة ثم يركبان المركبة الى الحمراء فيقطعان زمن الرياضة هناك ويتناولان العشاء في منزل فريد. وأما أن يذهبا معاً الى الحمراء تواً ليأخذا الغذاء هناك ويصرفا النهار وبعد ذلك يعودان قبل الغروب الى المدينة فيتروضان على جسر الجبل او طريق مدرسة الاميركان ثم يعرجان على منزل ابراهيم فيأكلان هناك ويزوران من يرغبان زيارتهم

وعلى هذا الحال كانت اوقات فريد تنقضي وهو مسرور فرح لانه يأخذ منها بالحظ الاوفر اذ يباشر اعماله ويؤدّي واجب وظيفته ويتروض احسن رياضة ويعاشر احسن القوم فعاش عيشة راضية مرضية يحسده عليها العدو ويفرح له بها الصديق

الفصل الثالث

« الفقر مع السعادة خير من الغنى مع الشقاء »

لو سكت الزمن عن بنيه وتركهم فيما هم فيه لعاش كل راضياً بما قسم الله له يأكل ما يحصل عليه حامداً شاكراً .. الا انه لا يدوم على حال فهو اللجوج اللحوح العابث بالراحة المقلق للخواطر المهيج للقلوب الجارح للأفئدة عجباً له كأنه يغار من ابنائه ان رأى احدهم في نعمة او وجده في

راحة فلا يتركه يتمتع بما أوتي بل ينقضّ عليه انقضاض الظالم على المظلوم والقوي على الضعيف في بلد لا يراعي قانونها ولبعض سكانها امتياز على بعض فيعبث براحته ويسلبه نعمته ويورثه الشقاء

وما الشقاء في الفقر كما يقول به الفقراء بل الشقاء عين الشقاء في الغنى المحفوف بالمكاره والمزعجات . وما الفقير القانع بما آتاه الله الحامد له على ما اعطاه الا سعيداً قرير العين . وأي سعادة بعد ان يكون راضياً بما أوتي من الزاد آكلاً منه شاكراً ربه ثم يرقد على جنبه فينام مرتاح الضمير لا تقطع نومه الهواجس ولا تقلقه في مرقده الافكار ولا تنغص عيشه الامراض ولا تبغضه في الحياة السقام . . فالسعادة كل السعادة في الراحة العقلية والصحة والعافية سواء كان الانسان فقيراً او غنياً . وانما السعادة والغنى أعز من بيض الأنوق

كم من غنيٍّ تتولاه الامراض وتحرمه السقام لذيذ المنام حتى يرى الشقاء في الغنى والسعادة في الفقر ويتمنى لو يهب ماله وغناه لمن يتفضل عليه بمثقال حبة من الراحة والنعيم ولو كان يعيش فقيراً لا يملك شروى نقير . وقد لا يجد من يبيع الصحة والعافية وسعادة البال وراحة الضمير بمال طيه الشقاء وحوله العناء وكلنا يحب الصحة والعافية والنعيم . وما احسن الفقر مع السلامة

والشقاء كغيره ينقسم اقساماً وله انواع . منها الصعب الشديد ومنها الذي يحتمل ويطاق واصعب انواعه واشدها « الحب » فالحب نوع من الشقاء بل هو هو عينه ونفس البلاء . فقد يطرأ على القلب الخالي فيشغله

والفؤاد الصحيح فيمرضه والجسم السليم فيسقمه . والبدن القوي فيضعفه والفكر الرائق فيعكره والعقل الراسخ فيزحزحه . والخاطر الهادئ فيهيجه والبال المستكن فيحركه

هوالحب فاسلم بالحشاما الهوى سهل فما اختاره مضنىً به وله عقلُ
وعش خالياً فالحب راحته عنىً واولهُ سقمٌ وآخرهُ قتلُ

وكأن الدهر رأى فريداً في سعادة وغنى فساءته راحته وحسده على صحته وعافيته فأقسم ان يرميه بأشد سهام الشقاء واحدّ نباله

ولكنه لله دره لم تزعجه النبال ولم تفجر بطن سره السهام فلم يبث نجواه ولم يشتك بلواه بل قابل الشقاء بصدر صنديد وصدّر له قلباً من حديد . ولكن

مهما يكن عند امرئ من خليقة وان خالها تخفى على الناس تعلم

فقد دخل ابراهيم عليه يوماً في منزله بالحمراء فوجده على خلاف عادته جالساً على كرسيه غارقاً في التأمل وعهده فيه ان يجده جالساً منتبهاً مستوياً امام مكتبه سابحاً في مطالب فنه متتبعاً أثار فوائده

فلما مشى نحوه ووصل اليه ووقف أمامه ألقى السلام عليه فلم يشعر به بل كان فاتحاً عينيه ذاهلاً واضعاً طرف شاربه في فمه يقرضه باسنانه

فعجب اخ الصداقة بحال اخيه وأشفق عليه وأحب استطلاع سر انشغاله وقد حسب له في نفسه الف حساب وحساب . ثم همّ بتنبيهه ولكنه خاف عليه شر المفاجأة فبعُد عنه واخذ يخطر في ارض الغرفة روحة وجيئة يصفّر بفمه وينقر زجاج النوافذ بأنامله ويضرب الارض بعصاه

ويعبث بمفتاح الباب يقفل به ويفتح وكل ذلك تنبيهاً للغافل عنهُ الغائب بعقلهِ . الحاضر بجسمه .. فرجع الى نفسه واستوى جالساً فبصر بأبراهيم فسلم عليه وناداه اليه فجاء نحوه وجلس بجانبه ساكتاً ينتظر بفارغ الصبر ان يخبره فريد بما يشغله ويبث له نجواه لانهُ صديقه الحميم

ولكن فريداً تناول كتاباً على الطاولة وابراهيم أخر وأخذا يتصفحانهما ولا يقع بصرهما على شيء منهما لان الاول تائه في تخيلاته والثاني يسارقه النظر متأملاً في حالته

وجاء خادم القهوة فتنبه فريد وألقى الكتاب من يده وعزم على صديقه حتى اذا شربا عاد كل الى ما كان عليه .. ولكن انشغال ابراهيم على صاحبه لم يمهله طويلاً فالتفت اليه وقال

ما لي اراك منهمكاً ؟

قال فريد لا انهماك ايها العزيز ... واخفى تنهداً عميقاً . لاحظه عليه ابراهيم فزاد انشغاله فقال له وهو يحاوره

لا يمكن فليست هذه حالتك !!

قال سبحان مغير الاحوال !

قال أشفِ غليلي وأرح ضميري فاني لا أستطيع الصبر !

قال سأنبئك بما لم تستطع عليه صبراً !

قال عجل !

قال فريد موعدنا الغد وان غداً لناظره قريب . والآن دعنا نركب عربتك الى المدينة لنزور صادق افندي فاني أحب أن تعرفني به أليست

عربتك هنا ؟

قال ابراهيم نعم . وقام معه والانشغال يكاد يقعده ولكنه علّل نفسه بالوقوف على السر قبل مفارقته . وقد عجب لطلبه زيارة صادق وهو لا يعرفه قبل اليوم

الفصل الرابع

« صادق فى منزله »

منزل صادق في أحسن شوارع المدينة وأهمها وهو بيت لا بالصغير الحقير ولا بالكبير العظيم . تدل هيئته على حالة ساكنيه ويخبر لسان شكله أنهم من متوسطي الحال بين القوم . . وما الفقر بعار ولا الغنى مجلبة الوقار . فكم من فقير ترى في منزله من النظافة والترتيب وحسن الهندام ما لا تراه في بيت من يكيل الذهب كيلاً

ولعمري للفقير في هذه الحالة أحسن حالاً من الغني الذي لا ينتفع بغناه حتى في ترتيب محل سكناه .

وما كان صادق ممن يشار اليهم في المدينة ببنان الغنى والاثراء . ولا ممن يدرج في عداد الفقراء . بل كان بين سماء الموسرين وأرض المعوزين

وصل ابراهيم وصاحبه الى منزل صادق ونزلا من العربة فقابلهما خادم صغير سألاه عن سيّده فأجابهما بوجوده فأعطياه بطاقتين باسميهما ولبثا في مكانهما غير بعيد وجاء الخادم ففتح لهما غرفة الاستقبال ودعاهما للدخول فدخلا وفريد لا يشغله شيء عن انتقاد ما في صحن الدار والغرفة

من الاثاث وهندامه والارض والابواب والنوافذ والزجاج وكل شيء يتفقد نظافته ووضعه والذوق في ترتيبه كأنّ المنزل بما فيه معروض في سوق البيع وهو يرغب في شرائهِ

ولم تك برهة بعد جلوسهما حتى جاء صادق فبش لهما وهش واهدى لهما من عبارات الاحترام والاكرام ما ملأهما سروراً وارتياحاً . وعرّفه ابراهيم بفريد فشكره وحمده على معرفته اياه وأثنيا على بعضهما بعضاً

ولم يمضِ زمن بعد مجيئه حتى حضرت القهوة فتنسم فريد رائحتها الزكية من بعيد ولحظ نظافة الكؤوس وسلامة الذوق في انتقائها ثم ذاق طعمها اللذيذ وماء الورد عليها مما تضعه أكثر العائلات فارتاح لكل ما رأى في هذا المنزل وما ذاق

وبعد الفراغ من القهوة عطف فريد على صادق ودخل معه في الكلام يقلّب له حديثاً بعد حديث ويدخله في مطلب بعد آخر كأنه ممتحن يريد استطلاع معلومات تلميذه . وابراهيم بين ذلك يعجب ويستغرب .

ولما رأى طول المقام نبه فريداً الى وجوب القيام فقام هذا متثاقلاً كأنه لا يود الانصراف فزاد عجب ابراهيم لانه لم يكن يعهده في صاحبه قبلاً ولكنه أخفى عجبه واستغرابه ومشى مع فريد الى العربة وشيعهما صادق اليها . وقبل أن تتحرك بهما التفت اليه فريد وقال له

— عسى أن تشرفنا بالزيارة في منزلنا بالحمراء فنسعد بقدومك ونحظى برؤيتك فقال صادق وهو يشير اشارة الانبساط والارتياح

— اني لا يمنعني عن زيارتكم مانع . واني لازداد بدخولي في منزلكم

شرفاً على شرف دخولكم منزلي . واني لسعيد الحظ بمعرفتكم وأشكر الله عليها كثيراً كما أشكر صديقي الفاضل ابراهيم لتفضله عليّ بتعريفي بكم فشكره الاثنان وودعاه باشارة الايدي . وأمر ابراهيم سائق مركبته بالمسير الى منزله ليتناولا الغذاء هناك . فكرّت بهما العربة الى حيث أمر . وفي الاثناء التفت الى صاحبه وقال له وهو يريد اختلاس السر من ثنايا الحديث

— كيف رأيت صادقاً يا صاح ؟

قال خير أنسان

قال أراك احببته فقد وجدتك لا تود فراقه فهل ترى أن نكرر له زيارتنا غداً ؟ ؟

فعرف فريد بذكائه قصد ابراهيم فقال له

دع مسارقة الحديث فلا بد من اطلاعك على الامر بعد وصولنا

فسكت وهو ينتظر الوصول الى المنزل وقد تراءى له ان المسافة طالت والمنزل بعُد والوقت امتدّ . فاخذ يصبر نفسه ويحارب هواجسه .

وعند وصولهما الى المنزل دخلا الى غرفة الاستقبال فجلس ابراهيم وفريد جنباً لجنب صامتين لا يتحركان فالاول منتظر والثاني مفكّر وكلاهما حائر ! !

ولكن لم يمتد بهما الزمن حتى حول فريد نظره نحو صاحبه وشرع يكلمه فقال

أراك تعجب من حالتي وزيارتي صادقاً على غير سابق معرفة ؟

قال أشد العجب ! !

قال لك الحق .. أتعرف صادقًا من زمن مديد ؟

قال أعرفه من الصغر

قال أتظنه خليقًا بمصاحبتنا ؟

قال انه أحسن الناس سيرة والطفهم معاشرة ولم أسمع عنه ما يشين

قال فريد وهو كذلك

وظهرت على وجهه علامات الارتياح والسرور وسكت قليلاً فضاق ذرع ابراهيم وزاد اشتياقه لمعرفة الخبر . وهو لا يقدر ان يقدّر له في نفسه شيئًا او يجزم عنه أمراً لما يعلمه من صدق نيّة الاثنين وحسن سيرتهما

فقال وقد ظهر عليه الاهتمام

بالله أخبرني ان أردت او قل اني لا أخبرك وان في المسألة سراً لا يجب اطلاعك عليه رغماً عن كونك أخي الصادق وصديقي الامين .. ثم سكت وحول وجهه ببطء ورشق فريداً بنظرة العتاب تخجل هذا وأحسّ بكدر صاحبه وآلمه تعريضه بصداقته وأنه لا يأتمنه على سره فالتفت اليه وقال

لا وابيك ايها العزيز فليس ما يخفى عنك وانما هي الهواجس تتراكم عليّ فتعقد لساني . وهل تراني أبرم أمراً قبل مفاوضتك أو أسمع كلاماً ولا اخبرك ؟ فأي سر بعد ذلك يخفى عنك وما المسألة كلها الا اني اريد الاقتران بكريمة صادق ؟

فبغت ابراهيم وقال بنغمة الاستغراب عجباً ومن اخبرك عنها ؟ ؟

قال لذلك حديث طويل ساخبرك بهِ . فهل تجدني مصيباً في اختياري ؟

قال ان صادقاً لنعم الرجل ونعمت عائلته

قال حسناً . وقد استخرت الله وعملت اللازم ووقفت على ما يجب الوقوف عليه في مثل هـذه المسألة ثم ارسلت والدتي امس الى منزل صادق فجاءت معجبة بعائلته مسرورة بحسن ما لاقت وما رأت . غير انها وا حزناه قالت ما سبّب لي السهاد طول الليـل الفائت واعقب عندي الافكار والهواجس مما رأيت بعضه اليوم بنفسك

قال ابراهيم وماذا قالت ؟

قال قالت فوحبي في بقائك لولا ما رأيته في عينيها من الذبول وجسمها من النحول ووجهها من الاصفرار لوافقت على عقد خطبتها لك . . فقمت مهموماً

فعجب ابراهيم لوقوع صديقه في حب الفتاة وقد لحظه عليه واراد تحقيق ظنه فقال له ـ اذاً لك من بنات القوم بدلاً وهنّ في المدينة كثيرات

فقال فريد أصدقك الخبر أيها الصديق أني أحببتها واخترتها لنفسي ولذلك حديث طويل سأقصه عليك فاطلب الغذاء الآن

وجاء الطعام فتناولاه وبعد الراحة قليلاً طلب ابراهيم من صديقه ان يسرد عليه خبره وسبب اختياره تلك الزوجة

الفصل الخامس

« شرط العاقل في الزواج »

فقال فريد اعلم ايها الاخ ان الزواج أمر طبيعي لازم كلزوم غيره من لوازم الحياة وحاجة ضرورية من حاجات المعيشة بل هو السبب الاقوى في حفظ كيان الكون والعلة الوحيدة في بقاء العمران . فلولا الزواج لفقد النسل وانقرض الجنس وضاع العالم وخرب الكون . . ذلك ان كان عدم الزواج ميسوراً

ولكنهُ غير ميسور لضرورته كما قدمت لك فترى الفتى حين يبلغ أشده ويتمتع بالرجولية فاول ما يشعر به الضرورة فيرى نفسه ناقصاً وحيداً بعيداً عن ملاذ العالم حتى يتزوج فيشعر بكماله ويحسّ بأنسه وقربه من مصاف الرجال فيعيش قرير العين هادئ البال مرتاح الضمير يأكل طعاماً شهياً ويلبس لباساً طاهراً ويشرب شراباً نقياً . وما ابلغ القائل[1] في الزواج حيث قال هو الالفة التي تمتزج بها الروحان امتزاج الصهباء بالماء . والهوى الذي يطلبه القلب كما يطلب الصدر الهواء . والجنة التي لم يسعد آدمها الاّ يوم خلق الله له حواء . ولا عبرة بما لقي لاجلها من الشقاء فانما هي تعزية الشقاء . ولا بما جلبت عليه من الداء فقد كانت هي الدواء . واذا كانت قد حرمته هناء الجنة فقد عوضته في الارض جنة الهناء . او منعته عن ثمار الخلد فقد منحته ثمار الوداد وحلاوة الابناء . وسبحان من

---

(١) المرحوم الشيخ نجيب الحداد

كمل آدم بنقص ضلع من اضلاعه فزاد من حيث أنقص واحسن من حيث أساء . ألا ترى ان الفتى ناقصاً في كيانه . خفيفاً في ميدان زمانه . وحيداً منفرداً حتى يضم تلك الضلع الى جنبه ويرجع هـذا الجزء الى مكانه. تلك حكمة الخالق لو لم يجد المرء ناقصاً لم يخلق له تكميلا . ولو رأى آدم وحده جميلاً ما جعل له حواء تجميلاً . سنة الله في خلقه ولن تجد لسنة الله تبديلاً

ناهيك أيها الاخ بما يجده الانسان من الايناس والسرور في معاشرة الجنس اللطيف فيرى تلك الزوجة تتهادى في منزله فينشرح صدره ويسمع نغمات صوتها فترن في أذنيه كنقرات الانامل على الاوتار فينقشع همه وأن أحسن ما يلين الطباع ويهذب النفوس ويزيل خشونة القلوب معاشرة النساء . فاذا رأيت رجلاً جافي الخلق عابس الوجه مقطب الجبين عديم الصبر سريع الغضب سهل الحنق فتحقق أنه لم يتهذب بمجالسة النساء ولم يتمتع بلذيذ مسامرتهن (١)

ولا أطيل عليك فلا بد لك من معرفة ذلك فقد جربت الحياة بنفسك وذقت حلوها ومرها ولا بد لك من تحقيق وجود الحلاوة بعد الزواج والمرارة قبله . بحقك أليس كذلك ؟

قال ابراهيم نعم

فقال فريد واذ وافقتني على الحق وصادقت على كلام الحكماء والعقلاء فاسمع تتمة الحديث وانظر ماذا ترى !

---

(١) الهلال « مجلة »

(فلما مشى نحوه ووصل اليه ووقف أمامه ألقى السلام عليه فلم يشعر به — انظر صحيفة ٢٤)

قال عجل ناشدتك الله

فقال ولما تحقق لدى الحكماء ضرورة الزواج قالوا فيه قولاً آخر هو الصواب وعين الجد . قالوا انه لا يجوز الهجوم عليه والاقدام بلا رويّة ولا امعان . قالوا وقولهم الحق بوجوب اختيار الزوجة وانتقاء العروس لتدوم العشرة وتتأبد الحياة . وان الغاية من انتقاء العروس انما هو نعيم الزواج وان عماد الزواج وملاك امره انما هو « الحب » المتبادل بين القلبين وهذا الحب لا بد منه لانه العروة الوثقى التي تجعل الجسدين واحداً على هيئة من الاتحاد الطبيعي يتواصل بها الانسان وتصان بها الانفس والاعراض من اخطار الفساد والابتذال ومرتبة هذا الحب ليس فوقها مرتبة لان

غايته بذل الذات لا بحكم القهر والاعتساف بل بحكم التفاوض والاسترسال لان يكون كلٌّ من العروسين مستعداً ان يبذل نفسه حباً بقرينه وصوناً لحب غرست اصوله في الفطرة نفسها .(١)

هذا شرط العاقل في الزواج ورأي الحكماء والفلاسفة لا مايشترطه شبان مصرنا ويتمسك به فتياتنا مما سأحدثك به

فتحرك ابراهيم في مجلسه واضطجع الى الوراء علامة الضجر فلحظها عليه فريد فقال له

كأنك ملالت الحديث يا أخا الصداقة ؟

فقال لم أملَّ وانما انا في شدة الاشتياق لسماع خبرك وما وقع لك

قال اطلب لنا قهوةً ريثما استريح

فأمر ابراهيم خادمهُ باحضار القهوة ولم يكن غير بعيد حتى جاء بها فشرباها واستأنف فريد الحديث فقال

الفصل السادس

« بمن تتزوج ؟ »

الزواج كما علمت ايها الصادق لازم فمتى يبلغ العاقل أشده نراه يطلب قرينة تشاطره حياته وتقاسمه نعم هذه الدنيا واكدارها ولكنه لا يدري بادئ بدء كيف يميل اذ تتمثل له كل فتاة على هيئة الصلاح تحمله ان يميل اليها ميلاً تنشطه عوامل الحس دون عوامل العقل فيقف حائراً مندهشاً

(١) المرحوم الشيخ نجيب الحداد

لا يعلم كيف يسير . ولكن لما كانت هذه العوامل متغيرة تصدر عن محسنات ليس لها قرار بما قد يعتورها من الصفات والاشكال كان لا يلبث ان ينبذها ظهرياً ويطلب موضوع حبه من وجهه الخليق به فتعترض له جواذب تتنازعه من كل مكان الى ان يبتّ امرهُ إما طبقاً لمراده او طوعاً لارشاد سواه على حسب ما يتغلب فيه هدى العقل او ميل الفؤاد

وهذه الجواذب محورها الفتاة وهي إما انها تكسبها مما حولها او تكون صادرة من الفتاة نفسها . فاما الذي يكون مما حولها فهو الجاه والمال . وأما ما يكون منها نفسها فهو الجمال والصحة والآداب . فاذا اجتمعت هذه الجواذب كلها في فتاة قلنا مع الشاعر

« ما احسن الدين والدنيا اذا اجتمعا » ولكن قلّ ان تجتمع في فتاة واحدة فان لم تجتمع فأيهما افضل ؟ وهنا محل الانتقاء .

يرغب البعض في الجاه وهم القليلون ولا يعبأ بهم ولا يقاس عليهم . وآخرون في المال وهم الكثيرون وحججهم كثيرة ولكنها لا تفي الحب المتبادل حقه وهو ملاك الزواج وقوامه كما قدمنا فضلا عما يجر مال الفتاة من المثالب والتعيير اذ هو لا يولد الحب الخالص وان لبث ثابتاً وازداد نماء وتوفيراً ولا يزيد المرء في عين امرأته قدراً بل قد يجلب اليه المذلة لانها تزدهي عليه بأنها علة اعتباره وغناه فاذا اهمل او قصر في التزلف ثارت في رأسها عوامل الغطرسة وهي ميالة اليها بالطبع واصبح زوجها لديها ذليلاً مهاناً والمذلة عار ولا ترضى بها الا الانفس الخاملة . وقد تكون المرأة حسنة الاخلاق طيبة القلب فتنقاد لزوجها ولا تسخطه وان كانت هي علة غناه

وجاهه ولكن المال المكتسب على هذا الوجه لا يزيده شرفاً ولا شأناً لانه بكده واجتهاده ولا ينفي عنه عاراً تهمس به الافواه وتتناقله الالسن بأنه لولا امرأته لما كان غنياً ولا ذا جاه ومروءة . فان لبث الفتى مصراً على الغنى وكان لا ينظر الا الى المال كان لا يطلب قرينة يعيش معها هنيئاً بل سيدة تكون هي الآمرة الناهية . ولكن اذا توازنت الاموال بينهما او تساوى جاههُ ومركزه بمالها وحصلت المساواة وهي أليق شيء لوقوع المراضاة سهلت الامور وأتاهما الصفاء عفواً

أما الجمال فمن اكبر المحرضات على القران ولكنهُ لا يستوقف نظر العاقل لان الجمال يزول وشيكاً فان زال الحب مع زواله كان ذلك من شأن الشهوات البهيمية التي يعلو عنها القلب الانساني علوًّا كبيراً واذا استبدل به عاشقهُ جمالاً سواه فليس التبدل من شيم القلوب الكريمة

وأما العافية فواجبة ضرورية في الزواج فان لم تتمتع بها الفتاة كان الاولى بها ان تلازم بيتها او تتخذ البتولة عمادها وكان الله خيراً وابقى .[1]

فما تقدم تعلم ان الحبَّ احسن منتق والقلب خير مختار والفؤاد أمهر منتخب وبالبداهة يظهر لك صدق قولي لان الانسان لا يحب الا من تقع موقع استحسانه وتنزل من قلبه المنزلة العالية وتحل من فؤاده المحل الاعظم .

فقال ابراهيم وقد اعتدل في مكانه . ألم تسمع بمن يعشق اللاتي هنَّ احط منهُ مقاماً ويتزوجها ويجلب العار لعائلته بسبب ذلك ؟ ألم تسمع

(١) انتهى بحروفهِ من « انتقاء العروس » للمرحوم الشيخ نجيب الحداد « المنتخبات »

بمن احب بائمة فتزوجها او مومسة فاقترن بها ؟ ؟

فقاطعهُ فريد بقوله . أنسيت أيها العزيز « قل كلٌ يعمل على شاكلته » وكلٌ يختار ما يلذ له ويعشق ما يوافقهُ ؟ فالفتى لا يحب الفتاة الا اذا اعجبهُ جمالها ولطفها وحسنها وأدبها .

ولكن العاقل من اذا امالتهُ هذه الدواعي الى فتاة لم يهبها قلبهُ وعقله قبل ان يسأل عنها ويقتص سيرتها ويعلم محل عائلتها من الشرف او الضعة ويجتهد في الوقوف بنفسه على مكانها من الادب واللطف وحسن السمعة فاما اقدام او احجام وعندها لا يصعب عليه الرجوع من باب الغرام قبل دخوله في داره . واطفاء شرره قبل التهاب ناره .

ومع ذلك فمتى حصل الحب بين فتى وغادة وسرى في افئدتهما الهوى الصحيح اصبح كل منهما يطلب إلفهُ للاقتران به لا يصدهما مال ولا شرف ولا اختلاف مقام ولا غضب اهل ولا موافقة زمان ولا مكان ويتم الزواج على الحال الحاضرة والمعيشة المتيسرة والرضى بالفقر أو بالكفاف فلا يرهب الفتى من تغيير الازياء ولا كثرة النفقات بل يعيش مع من يصطفيها وتصطفيه وهي راضية بحاله وهو راضٍ بحبها ويكون الزواج من اسباب المعيشة التي يتناولها كل فرد على حسب مقدرته وامكانه من الغنى والفقر . والا فما دام القلبُ لا يهوى والنفس لا تجذبها عوامل الحب ولا تقتادها لواعج الصبابة والهيام فهناك التعلل بالمال والاحتجاج بالشرف والهرب من الاقتران والخوف من الانفاق والجزع من اختلاف الازياء والاثواب والمنافسة في المعيشة والتفنن في تزيين الزوجة والمباهاة

في بهجة العرس واقامة حفلاته ونواديه بل هناك يكون الزواج تكلفاً من جانبيه وتعنتاً من صاحبيه والمتعنت كما قيل لا يطاع والمتكلف لايزال كارهاً يفعل ما لا يستطاع [١] فاذا اردنا الزواج بحقيقته وراحته وهنائه وأحببنا تعريفهُ لما خرجنا عن كونه نتيجة الحب. فان الرجل والمرأة خلقهما الله ذكراً وأنثى . وأوحى باقترانهما ما اوحى . وجعل « الحب » عروتهُ الوثقى . فجعل الفؤاد له مأوى . يسعد به ويشقى . ويموت به ويحيي . وأقام اللحظ آيتهُ الكبرى . يرسل الى القلب الهوى . فيأمر فيه وينهى . فأثار فيه العاطفة القصوى . عاطفة الوجد الأُولى . فنبه النفس من الكرى . فآنست من الجمال ناراً تذكى . فوجدت على النار هدى . فعلّمت سرَّ الجمال وأخفى . فهامت غراماً الى اللقيا . وسعت لها سعيها الاوفى . فكان القران خاتمة المسعى . [٢] فلم يرهنهُ مال ولا شرف ولم يعقهُ غيرُ ذلك من تلك الشروط التي يشترطها فتيان عصرنا

واذا كنت لا تزال تقول بخطاء من يعشق الغادة من عائلة أحط منهُ في العلم والتربية والثروة فيتزوجها اقول لك ما قالتهُ الحكماء من أن اخلاق الفتاة كالغاز يأخذ شكل ما يوجد فيه فهي وان تطبعت بطباع عائلتها من قبل لا تلبث بعد الزواج أن تتعود بعوائد زوجها وتحفظ ما تتلقنهُ من اخلاقه . او هي كاللوح يكتبُ عليه والدها ما يراه حسناً ثم يمحوه الزوج او يثبتهُ والامر طوع ارادتهِ لان اللوح يقبل الامرين . او

(١) بحروفهِ للمرحوم الشيخ نجيب الحداد

(٢) الشيخ نجيب الحداد «بحروفه»

هي كالعجين يشكلها الوالد كما يشاء ويعيدها الزوج الى ما يشاء . ومن هنا تعلم أيها العزيز أن المرء لو عشق الغادة وكانت وضيعة الحسب او قليلة ادب العائلة فحبها لديهِ شفيعها ثم هي بعد الزواج في يده يدير دفة اخلاقها الى حيث اراد .

أتراني مخطئاً أيها الصديق ؟

قال ابراهيم : للهِ درُّك ايها الحكيم فنعم الرجل انت ونعمت آراؤك . فلو كانت كل شبابنا على شاكلتك لما انزوت العذارى في زوايا الترك لقلة مالهنَّ وعدم غناهنَّ ولما شاخ الفتى عزباً لتشبثه في طلب المال وتعلقه في حب الغنى .

قال هم مغرورون لا يعرف احدهم بمن يتزوج فهم يحسبون المال راحة الزواج والغنى علة المعاشرة ولا يدرون أنه قد يتزوج الفتى بالفتاة لما لها فقد يحبها وقد لا يحبها وقد تميل اليه وقد لا تميل وقد وقد . وهناك تكون العشرة تكلفاً والابتسام ظاهرياً والخصام قريباً والنفور منهما على قاب قوسين أو أدنى والانفصال بينهما اقرب اليهما من حبل الوريد . ولا يخفى عليك قبح هذه الحالة وسوء المصير .

قال أجل اني أوافق على اقوالك وأستحسن آراءك . فليت لشبابنا آذان تسمع وقلوب تحفظ وعقول تعي فيتزوجون الفتاة على الاقل لمحض جمالها وصحتها وآدابها وشرفها وحسن سمعتها ان لم نقل لحبها وهواها ويغضون طرفهم عن طلب المال فانه رأي غير رشيد . وقد قيل « لا تأخذ لماله فالمال يفنى والقرد على حاله »

فقهقه فريد عاليا والتفت الى صديقه وقال نسأل الله لهم التوفيق . وقال في نفسه لقد أثر كلامي في نفس ابراهيم وما هو الا الحق والصواب

وقال ابراهيم وقد هاج شوقهُ للوقوف على حديث حب صديقه لابنة صادق وكيفية وقوعه فاراد استطلاعهُ

اذاً لا بد لك من ان تكون قد سرت على سنن الفلاسفة فاخترت زوجتك بقلبك ولم تتكل على رسل الآذان او غيرها

فقال فريد وقد تأوّه لقد تعبت في البحث والتنقيب وسرّحت قلبي في فيافي الهوى ليحمل صخور الحب واثقال الغرام علَّهُ يعثر بينها على الماسة التي تعجبه . وطوّحت به في ميادين حرب الصبابة عساه يرجع منها ظافراً بغنيمته التي تروق له . فساح وجاهد ورجع ظافراً غانماً . أحمد الله فقد عثرت على البغية المفقودة . والضالة المنشودة

فاعتدل ابراهيم في مجلسه استعداداً لسماع حديث اخيه الصادق . واستمر فريد في كلامه فقال وجدت من توفرت فيها شروط العقلاء من الصحة والآداب وحسن السمعة وشرف الاصل . ناهيك بما أمال قلبي اليها من موافقة الافئدة وما جذبني نحوها من لطف الخلقة وجمال الصورة واعتدال القوام ورقة الاحساس فقد ائتلف روحانا واتحد قلبانا . وميلي نحوها وحبي لها وشرف سمعتها وأصيل عائلتها اعظم البواعث على تتميم الاقتران بها واقوى الشفعاء لها عندي في قبولها ولو كانت في حضيض العوز وهوّة الفقر .

ورأى ابراهيم أن صديقهُ لم يشفه بسرد حديث حبه فتململ في

مجلسه ولم يتحمل مرارة الانتظار وغضاضة الصبر فقال له

أحرقتني بنار الانتظار فهل ترى ما يوجب اخفاء حديثك مع الفتاة عني فاني اراك تحاولني وتسوّف في الامر ؟

قال قلت لك لا يخفى عنك سرٌّ فأنا أنت وأنت أنا وكلانا سواء .

قال اذاً لا تطل عليَّ فاني شريكك في احوالك سرائها وضرائها

قال صدقت ولا يحول بين اعتقادي في اخلاص قلبك لي حائل . فسأخبرك الخبر هذا المساء لان الوقت لا يسمح الآن فقد أزف موعد الرياضة فأمر بتجهيز العربة

فاذعن ابراهيم وامر بتجهيزها وقد اطمأن باله على صاحبه قليلاً وزال ما كان يشعر به من ضيق الصدر عليه . وقام فاخذ بيده وخرجا يتهاديان الى المركبة جنباً لجنب تتلألأ في وجهيهما علامات الاخلاص في الود والصحبة وطهارة القلب كأنهما روح واحدة في جسدين فما احسن هذه الصحبة وما احقها بالدوام !

الفصل السابع

« شرف الفتاة حسن سمعتها »

ولما اخذا حظيهما من الرياضة مالا الى الحمراء ليأخذا عشاءهما هناك في منزل فريد . حتى اذا تناولاه قال له ابراهيم ألم يئن لأذنيَّ ان تسمعا الحديث ؟

فقال فريد لك ايها الاخ ذلك ولي عليك الاصغاء . أمستعدٌّ انت ؟

قال بلهفة قل فكلي آذان .

قال فريد كنت قبل غروب ذات يوم آتياً من المستشفى والهواء عليل . والجوُّ بليل . فضيقت خطوتي . وابطأت في مشيتي . رغبةً في النزهة . وحباً في الفسحة . وتركت شاطئ النهر . لتغيير المنظر . فقصدت وراء الاسبتالية . من جهتها القبلية . ولم أبعد بكثير . ولم أترك النهر بيسير . حتى بصرت بشبه غزال . او قل بغزال . فلم اعجب لوجوده في ذاك المكان . ولم استغرب رؤيتهُ في مثل ذاك الاوان . إذ الغزلان لا تهوى الا الخلاء . ولا تألف منه غير جيد الهواء . فامعنت نظري واذا بها انسانة لطيفة . وروح خفيفة . وذات ظريفة . وخلقة جميلة شريفة . لاهية لاعبة . خالعة ازارها ساهية . فلم تشعر بي . ولم تنتبه لوجودي . ولا نبهتها رفيقتها . او هي خادمتها . حتى بعد أن تحققتها تماماً . وابتسم فؤادي لها ابتساماً . وانشرح لرؤيتها صدري . وفتحت لها قلبي . وقلت مرحباً وسهلا . لقيت اهلاً . لمحتني صاحبتها . فوكزتها ونبهتها . فالتفتت يميناً وخلفاً . ورشقتني بنبلة من لحظها زادتني بها تلفاً . ولا انكر عنك اني قصدتها . وفي عزمي مشافهتها . وليس لي عقل ولا فكر . لا ولا سمع ولا بصر . فقد عرتني نشوة . وأصابتني غشية . فوصلتُ مكانها . واقتربتُ منها . فاذا هي قد ارسلت ازارها . واسبلت استارها . وقامت تمشي تتهادى . لا تبطئ ولا تتمادى . فرأيتها وقد تجللت بالاعتبار . وتسربلت بالوقار . مما صدني عن الاجتراء . فمشيتُ خلفها على استحياء . أقتص خطوتها . وأتأمل حركتها . وأنتقد مشيتها . وأتفقد حالتها . فاذا هي من الآداب في الدرجة القصوى .

ليس فيها من سوءها ذرة او ادنى . فقد كانت سائرةً لا تعبأ بي . ولا تلتفت لجهتي . كأني لستُ وراءها . مقتفياً آثارها . كذلك لا يستلفتها سائر . ولا يهمها عابر . ولا يستوقفها مارٌّ .

فسرت واخوتك على غير هدى . لا املك لنفسي رشداً . حتى اذا وجدت نفسي في الطريق . أفقتُ ولم أكُ لأفيق . وتأخرت خوف مفاجأة رفيق . الى ان بعدت عني . وجاوزت مسكني . فاسرعت الى الباب . وناديتُ على البواب . فاحضر كرسياً فجلست انظر اليها . حتى ركبت مركبتها . وكانت في انتظارها . فقد علمتُ ذلك من استقصاء اخبارها . اذ كانت تأتي آناً بعد آن . تتريض في ذاك المكان .

فقمتُ ايها الصديق الى غرفتي . حيث قطعتُ ليلتي . ساهراً اتذكر . مستيقظاً اتفكر . أعيد ما رأيته . وأراجع ما نظرته . فاذا كلهُ مما يسرُّ ويُفرح . ويتسع له الصدر وينشرح . من الآداب المرضية . والمحاسن الشهية . فمددت يد الحب . الى القلب . فاخرجته أمامي . وعرضت عليه آمالي . وفتحتُ بابهُ قليلاً . ومهدت لدخول الحبيبة سبيلا . حتى اذا وقفتُ على عائلتها . وتحققتُ حسن سيرتها . ادخلتها الفؤاد حالاً . لا اسمع فيها مقالاً . ولا يهمني فقرها . ولا يسرني غناها . فاني اتزوج شخص الحبيبة التي احبها قلبي . وأقرَّ عليها عقلي ورأيي . أتزوج اصلاً . وأصاهر اهلاً . لا اطمع في مال . ولا يأخذ بقلبي حسن الحال . ويكفيني ان اعيش مع من رضيتها . واتحصل على من احببتها . فنعيش راضيين بنفسينا . قانعين بائتلاف روحينا . واتحاد قلبينا . وان كانت غنية وجاءني

مالها عفواً فكان بها . والا فيكفيني منها حبي لها . وأنا والحمد لله غني عن غنى النساء . الذي يسبب للمرء العناء . ولو كنتُ فقيراً . فلا ينفعني فتيلا . لان النفس الشريفة . لا ترضى الرذيلة . وأيُّ رذيلة اكبر من ان يعيش المرء من مال زوجته . وتكون المرأة سيدته . وما احسن واشرف من ان يعمل الانسان بكده . ويتحصل على عيشهِ بجده . ويسقي من عرق جبينهِ شجرة حبه . فتورق وتكبر . وتترعرع وتثمر .

وقد علمتُ ايها العزيز سيرها وسيرتها . وعرفتُ اهلها وعائلتها . ولا يخفى عنك كيف وقفتُ على معرفتها . فقد قضيتُ ليلة رؤيتها كيفما قضيت . ان كنتُ نمت او سهرت . حتى ظهر النور . وغرد العصفور . فقمت من فراش النوم . أستقبل ذاك اليوم . واستعنتُ بربي . على بلوغ اربي . ولبست الثياب . وفتحتُ الباب . وقصدت الحديقة . تلك الروضة الانيقة . فجلست هناك اتأمل الزهور . وأنصتُ لاصوات الطيور . ثم وليت وجهي شطر المدينة واستقبلتها . كأنها قبلة اتخذتها . فشممت ريح الحبيبة فسكرت . ولعب الهوى بعقلي فتهتُ . ولم ينبهني من سكرتي . ويوقظني من غفوتي . الا بلبلٌ على شجرة . مختفياً وراء زهرة . وقد أطلق صوتهُ الجميل . بالنشيد والترتيل . فاهاج احساسي . فرفعتُ نحوه رأسي . فكأنهُ عرف حالي . ولحظ بلبالي . فاشفق على قلبي . وخاف ان يجرح لبي . فسكت عن صراخه . وعدل عن صياحه . فقمتُ اذ ذاك مفكراً . ورجعت الى المنزل حائراً . فتناولتُ من الاكل دون الكفاية . وذهبت الى الاسبتالية . فقضيتُ اشغالي . وأنجزت اعمالي . ثم طلبت احدى

القابلات . العاقلات الامينات . فجاءت واحدة منهن . تمتاز بحسن الرأي عنهن . فامرتها بموافاتي في المنزل . على عجل . فحضرت . وما ابطأت .

وهناك ايها الصديق اخبرتها بعزمي على الزواج ورغبتي فيه وأريد منها معرفة العائلات الكريمة . والأُسر الشريفة . فدخلت معي في الكلام فجاذبتها الحديث الى ان اوصلتها الى مناسبة اطلعتها على من اخترتها . فوعدتني بمقابلتها . في محل فسحتها . وما جاء وقتُ الرياضة حتى قامت تقصد ذاك المكان وجاءت الحبيبة في عربتها مع رفيقتها . فعملت القابلة جهدها في مقابلتها والتحقق من معرفتها . وجاءتني عند الغروب فاخبرتني بما سرني وأراحني وشرح صدري وقشع سحب كدري ويا برد ذاك الذي قالت على كبدي :

انها كريمة صادق (ووحيدته) وانها حديثة العهد بالحجاب. ورشقتني القابلة بنظرة الاعجاب . وقالت لله درُّك من عاقل ذكي الفؤاد كامل خبير بالنساء وماهر في الانتقاد والانتقاء . ولما استخبرتها قالت ان من احسن عائلات المدينة واشرفها عائلة صادق . واخذت تطنب في المدح والثناء . حتى خلتها ترفعه الى عنان السماء .

فحمدت الله على ذلك وشكرت . واثنيتُ على القابلة وصرفتها وسكتُّ . ثم ذهبتُ فاستعلمت عن ذاك الشهم الفاضل . والرجل الكريم الكامل . والفتى الشيخ الحكيم العاقل . فلم أُقلِّبْ طرفي الا وجدت مدحاً فيه واعجاباً . وكلما انصت لاسمع الاثناء عليه واطناباً . فقلت يا نفس يكفيك ماعلمتي . وحسبك ماسمعتي . ويا قلب انفتح . ويافؤاد انفسح .

ويا روح استقبلي بالاكرام شقيقتك . ويا نفس أهلّي بقرينتك .

فأذعن الكلُّ واجاب . وفتح القلب الباب . وقالت الروح أقابلها بالترحاب . واذا بعامل عارضني وهو الارتياب . فصبّرتُ جوارحي . واستمهلت جوانحي . وعزمتُ على دقة البحث . لأُريهم الثمين من الغث . فاخذتُ في الامتحان . فقام على حسن ادب الحبيبة ألف برهان . ولذلك الخبر حديث طويل . أخبرك به بعد قليل . واما الآن فاختصر لك الكلام . فقد رأيت ما يوجب لها الاحترام . فادخلتها قلبي وفؤادي . وأهديتها ثمرة حبي ووداد . وزاد حبي لها . لما سمعتُ من حسن سمعتها . وما شرف الفتاة الا حسن سمعتها .

فقال ابراهيم يكفيك مدحاً فاني ممن يقيمون لك ألف دليل على شرف عائلة صادق وحسن ادبه وتربيته وشريف اصله وسيره . فنعم ما اخترت . والآن استودعك الله واتمنى لك صباحاً مباركاً . فأثنى عليه فريد وشيعهُ الى عربته .

الفصل الثامن

« النزاهة مصن الفتاة »

وفي الصباح بعد ان انتهى فريد من اعماله في المستشفى قصد منزل صديقهِ ابراهيم فوجده في انتظاره فجلس معه . وبعد تناول القهوة سأله ابراهيم اتمام حديثهِ وانجاز وعده فقال

بعد وقوفي على اصل الفتاة وعائلتها اردتُ التحقق من سيرها لانه

لا يخفى عليك سوء سيرة اكثر الفتيات وقبح سيرتهن . اولئك اللواتي لم يتهذبن ولم يتأدبن وكان آباؤهن لا يحسنون تربيتهن فتخرج الواحدة منهن هالةً سوداء على جبين عائلتها ونقطة غبراء في كتاب تاريخ اهلها وطوقاً من حديد في جيد قومها . اذا تحركت قالوا تحركت القبيحة واذا خرجت من منزلها صاحبتها الفضيحة . تلك خير لها الموت من الحياة وما حياتها هكذا الا سموماً في سموم .

فاحببت معرفة ما اذا كانت هذه على شاكلتهن او ممن رضي الله عنهن وهذبهن آباؤهن فاكتسبن ذكراً حسناً وأحاطت بهن شهرة طيبة فاذا خرجت من منزلها لازمها الجلال والوقار وأحاطها الاحترام والاعتبار فطأطأ الناس لها الرؤوس حياء واتبعوها بالالسنة ثناء .

فوقفت على كل ما اردت الوقوف عليه من أحوال هذه الفادة فاذا هي بنت عائلتها والذهب من معدنه لا يستغرب والشبل بن الاسد ولا عجب . لم اسمع وحقك عنها الا خيراً وثناء وشكراً ولم يخبرني احد عنها نكراً . فكنت اذا سألت احدهم مدح وشكر . وقال نعم الفتاة الله اكبر . فاذا بينت له مخافتي من السوء استعاذ واستغفر . كأنه يتكلم عن ملك لا عن بشر . فحمدت الله واعجبت بالفتاة ويحق لي الاعجاب فمثلها بين الفتيات قليل . وسيرتها الطيبة لا يحوزها من الفادات كثير . ولكنني لا أخفي عنك اني اردت الامتحان بنفسي والنظر اليها بعيني رأسي . فذهبت مرة الى ذلك المكان الذي نظرتها فيه أولاً فوجدتها فيه مع رفيقتها وحينما ابصرتني آتياً نحوهما اسرعت الى عربتها ولم يك اذ ذاك موعد انصرافها . ثم جاءت في

اليوم الثاني فوجدتني هناك قبلها فظلت في مركبتها وعادت من طريقها . وهكذا اكثر من مرة ثم لم تعد اليه . فعلمتُ انها لم تختر هذا المكان لرياضتها ومحلاً لنزهتها الا لكونها لم تنظر فيه رجلاً ولما رأتني أتردد عليه تركته حياءً وخجلاً

فقلق القلب . وانشغل البال . وهاج اللب . والحق يقال . فاحضرت تلك القابلة وارسلتها بكتاب لها ضافي العبارة . رقيق المعاني خفيّ الاشارة . نظمت في عقد سطوره لؤلؤ الكلام . ونفحت بينها روائح العطر من طيب السلام . وعرضت فيه قلبي عليها وفتحت فؤادي فاخرجت منه جواهر حبي لها عسى ان تراها فتقلبها بين يديها فيعجبها ثمين حبي الطاهر ويروق لها لؤلؤ غرامي النقي وتلك الجواهر . فتشاطرني وتقاسمني فاستريح قليلاً من حمل هذا العبء الثقيل وحدي

فيا لله ما اجهد من يحمل الجواهر واللآلئ وأشقاه خصوصاً جواهر الحب والغرام اذ هي أثقل من تلك واصعب حملاً وما اتعس من يحملها وحيداً لا يجد من يساعده في شقائه وعنائه . ويا للعجب يحرص الانسان على جواهر المال وهي فانية ضائعة ولا يريد فيها مشاركة ولا مقاسمة . ويحمل جواهر الحب ولآلئ الغرام يعرضها على من يريده لمقاسمته فيها فلا يلتفت اليها احد كأن سوقها في كساد او هي في فساد . وحقيقةً ان الحب شقاء وقلّ من يرغب في الشقاء او يرضى بالعناء

وذهبت القابلة بكتابي أيها العزيز وجاءتني به لم تمسه يدُ الحبيبة فأوجست في نفسي خيفة استيائها وأشفقت على قلبي من سوء غضبها .

غير اني تجلدتُ واقبلت على القابلة لاستطلاع الخبر فقالت :

اني لما ذهبت الى منزلها قابلتني هي ووالدتها وبعد ترحابهما بي وهما يعرفانني جلست برهة بعد شرب القهوة واتهزت فرصة . فاسررت للفتاة الامر واخبرتها الخبر . فما هي الا ان سمعته حتى احمرت وجنتاها وترقرقت بالدموع عيناها . وارتعدت فرائصها وارتعش جسمها واصطكت اسنانها . كأنها أصيبت بحمى . فلم استغرب ما اعتراها لصغر سنها ومفاجأتها بهذا الامر وهو ما تخوف منه بنات الشرف وتتهيب له غادات الآداب .

فسكتُّ عنها حتى هدأ روعها . والتفتُّ اليها واخرجت لها الخطاب فقالت ولهجة الخوف والاضطراب بادية عليها ولسانها يتلعثم من البغتة والدهشة : أرجعي الكتاب الى جيبك يا خالة . ولا تعاوديني في هذه المسألة . فلولا حرمتكِ وكرامة ضيافتك . لأسأت معاملتك . اين لي بالرجال معرفة واين لمن ارسلك معرفة بي؟ ثم قامت عني وقدجاءت والدتها فجلست معي وبعد قليل استأذنتها في الانصراف وحضرت اليك .

فاخذتُ يا صديقي من القابلة الخطاب واحسنت انصرافها وخلوتُ بنفسي أعيد عليها ماسمعته فكانت تزدحم عليَّ الافكار وتتراكم الهواجس فمنها ما كان يمثل لي الفتاة ملكة النزاهة في حصن الشرف المنيع تحرسها جنود الطهارة والادب وهي تجزع اشدَّ الجزع على ثلم جدرانه وتحرص أعظم الحرص في المحافظة على حصن شرفها الثمين . ومنها ما كان يمثل لي كلامها عبارة للتمويه وأحبولة للتغرير فأجزع وأقشعر . ولكنني وطدتُ عزمي على اعادة الكرة حتى تجلي المسألة وأعلم الحقيقة علم اليقين

ومهما يكن عند امرئ من خليقة وان خالها تخفى على الناس تعلم

الفصل التاسع

« قلب المرأة زمامها فاجتهد أن تملكه »

عجب ابراهيم لاهتمام صديقه في البحث والتنقيب وراء حبيبته فقال له :

أتعبت نفسك في البحث وأطلت التنقيب ايها العزيز

قال له فريد عجباً ! كيف لا ابحث جهدي وأفتني اخبارها قدر استطاعتي ؟ ألست أريد الاقتران بها فتكون شريكة حياتي وسيدة بيتي وأمّ اولادي التي تتوقف عليها سعادتهم وشقاوتهم وراحتي وعدمها ؟ أترضى لي ان اكون كغيري يحبون الغادة فيهيمون وراءها ويتعرفون بها لا ينظرون لسيرها فيقترنون بها فلا يلبثا الا قليلاً حتى تثور بينهما عواصف الكراهة وتفيض عليهما بحار النفور فتجرف من بين ايديهما الهناء وتترك ارض حياتهما غبراء لاتنبت فيها اشجار المحبة ولا تظهر عليها نباتات الالفة فلا يجدا مندوحة عن المهاجرة والانفصال

او اكون غرًّا تعجبني التمويهات وتغرني التغريرات من الغادة فلا ألبث ان اتعرف بها واميل اليها واسمع منها عبارات النزاهة والعفة مما قد لا يكون عندها منها مثقال ذرة فأتهافت عليها وأتخذها زوجة فلا تدوم وحقك مدة الزواج الا قدر ماتظهر اخلاقها وتبرز خفايا سيرتها ثم ننفصل على اهون سبيل اذ لا يمنع افتراقنا عهود المحبة او شفيع الغرام

او اكون جاهلاً اسمع بكريمة فلان فارسل والدتي او احدى قريباتي او بعض النساء فترجعن اليَّ تصفنَ لي جمالها الظاهري وحسن منظرها الخارجي وتطنبن في خفتها وقدها وقوامها . فتقول هذه يا حسنَ عقلها . وأخرى يا ثباتها . وغيرها يا كمالها . ورابعة يا جمالها . وفات الكل انهنَّ انما رأينَ منها حسناً وقتياً هي مجبورة على اظهاره أمامهنَّ ومكلفة بالتخلق به في وجودهنَّ ولم تلتفتن للاخلاق والكمالات الطبيعية والجمال الباطني فيفرح الجاهل باطنابهنَّ في مدح عروسه فيقع في شر جهله ويتعثر في سوء تدبيره

وما ادراك كيف تكون العشرة بين اثنين لم يسعَ بينهما رسول المعرفة ولم يسرِ في نفسيهما نسيم التعارف ولم يربط قلبيهما رابط الوداد فيضطر كلاهما لمصانعة الآخر بالتكليف ويحذر من اظهار خفايا طباعه واخلاقه حتى يأتي يوم لا بد من اطلاع احدهما على مساوئ الثاني وهناك التنافر والتباعد والخصام والقطع والانفصال وهذا هو السبب الوحيد فيما نسمع به من المنافسات العائلية والمشاحنات الزوجية . ناهيك بما تفعله النساء اللواتي ندعوهنَّ خاطبات من تجهيل الرجل وتغفيله فتوقعنه في عروس قد لا تلبث معه اكثر من قدر سواد ليلة العرس وذلك لانهنَّ قد أوتين من اهلها من المال ما ارضاهنَّ . او بما تجريه بعض العائلات من اظهار الفتاة الجميلة لاهل الزوج وتقديم غيرها له ليلة الزفاف وقد تكرر وقوع ذلك في هذه الايام وهو ولو انه بين العائلات من الطبقة السفلى الا انه دليل على فساد الرأي بالزواج قبل التحقق ومن غير سابق المعرفة والتواد

قال ابراهيم انك ايها الصديق حرُّ الفكر خالص الضمير . ألا تدري

ان رأيك هذا لا يروق لاكثر اهل بلادنا بل قل للكل تقريباً ولا تلبث ان تجاهر به فتصاب بسهام انتقاداتهم وتساق بحديد ألسنتهم

قال فريد اني كما قلت حرُّ الفكر خالص الضمير فهذا رأيي أبديه لك بكل جرأة لا اخشى فيه وهو الحق الذي لا يكذبه عاقل لومة لائم . نعم اني لا أسلم من ألسنتهم لو سمعوا به ولكني لا أعبأ بهم ما دمت على الحق خصوصاً وانها عادتهم إزاء ما يجدونه مخالفاً لما وجدوا عليه آباءهم ولو كان فيه النفع الزائد والخير العظيم ومع ذلك هل لهم الحق في ان ينكروا هذا الرأي وهو ما اجتمعت الآراء على تفضيله وصرحت به الشرائع السماوية وأمرت به وحثت عليه ؟

أما من جهة الآراء فالدليل عليه ماتراه من تصريح الغربيين للعروسين بالمقابلة والاختلاط الامر الذي نظنه عيباً وما هو الا صواب اذ هو شجر ينبت فيثمر المحبة فيتناولها الاثنان على السواء فتهنأ عيشتهما وتدوم ألفتهما وان لم تثمر فهناك تلافي الامر وغض النظر عن الاقتران فلا تحصل بينهما المشاحنات العائلية والمخاصمات الزوجية (لنا كلام غير هذا)

واما من جهة الشرائع السماوية فالموسوية والمسيحية منها لا تحرمان ذلك بل تحللانه وقد سارت عليه الامتان واتبعتاه لما فيه من الفوائد الاجتماعية القومية . ولقد اوصى الكتاب المقدس بمحبة الزوجة فقال :[1] « ايها الرجال أحبوا نساءكم كما احب المسيح ايضاً الكنيسة وأسلم نفسه

---

(١) الاصحاح الخامس من رسالة بولس الى اهل افسس (٢٥)

لاجلها » وقال :[١] « كذلك يجب على الرجال ان يحبوا نساءهم كاجسادهم . من يحب امرأته يحب نفسه » وقال غير ذلك في اكثر المواضع حثاً على حب الزوجة . وهل يتولد الحب الا من المعاشرة والنظر الى المرأة ؟ ولذلك يلزم ان يرى الزوج عروسه قبل الزواج فقد يحبها وقد يبغضها ولا تدوم العشرة بين المتباغضين

واما الديانة المحمدية والشريعة الاسلامية فقد أجازت النظر الى العروس قبل عقد الخطبة . وهي ولو انها حددت للنظر حدوداً يظنها الجاهل قليلة فيبني عليها قوله بتحريم النظر فهي في عين العقلاء والحكماء تكفي لوقوع المحبة او البغضاء وهي حكمة عالية من حكم الشارع فقد صرح برؤية الرجل لوجه العروس ويديها والوجه مركز الجمال واللطف والبشاشة والايناس والذكاء . فمن يرى وجه انسان لايبعد ان يحكم عليه ويضعه في موضعه من الجمال والذكاء والعلم والادب واللطف والامانة وغير ذلك من الاوصاف الجميلة او القبيحة . والوجه فيه العينان والجبهة والشعر والانف والحواجب والآذان والفم والذقن وهذا كل ما يهم الانسان معرفته عن الجمال . واليدان هما مركز خصوبة البدن فمن رآهما ونظر الاصابع فلا يبعد ان يحكم على الفتاة ويضعها بين الابدان في موضع الخصوبة او عدمها . وقد قيل ان يداً جميلة كافية ان تميز بها امرأة على غيرها في الجمال كأن من نالت يدها على يد غيرها مزايا الحسن كُفل لها انها مرتقية عليها في باقي محاسن الجسد[٢]

---

(١) الاصحاح الخامس من رسالة بولس الى اهل افسس (٢٨)

(٢) جريدة الطرائف

ثم لا بدَّ لمن يرى وجه العروس ويديها أن يلمح جسمها وقوامها وقدها واعتدالها وهناك محل الاختيار فاما محبة او بغضاء

وما الحب الا نظرة ثم يثني اخو الوجد عنها في لظى وضرام

واليك ما قاله الاديب

نظرتك «نظرة» بالحيف كانت جلاء العين مني بل قذاها

وقول الآخر

كم نظرة للظبا أودت بصاحبها حتى غدا بالتصابي فاقد الرشد

فما تقدم تعلم ايها العزيز أن رؤية العروس أولاً واجبة لتقع المحبة ولا يكون هناك فيما بعد محل لدخول البغض بينهما ومن يُحِبُّ يحَبُّ غالباً . فمن احب امرأة يغلب عليها انها تحبه ومتى احبته فقد وهبته قلبها ومتى ملك قلبها فقد ملك زمامها ومتى ملك زمامها فقد استحالت الفرقة بينهما وبعدت الشحناء عنهما

واذا تألفت القلوب على الهوى فالناس تضرب في حديد بارد

ثم التفت نحو ابراهيم وقال له ما ذا تقول في هذا الرأي ؟ وهل ترى للناس حقاً في الاعتراض والانتقاد ؟

قال ابراهيم انك سبقت فقلت انها عادتهم إزاء ما يجدونه مخالفاً لما وجدوا عليه آباءهم فدعهم بالله واسرد حديثك فقد شوقتني كثيراً واعلم ان لك رأياً يخالفك فيه غيرك . وانت تخالف غيرك في رأيه . « وللناس فيما يألفون مذاهب »

قال صدقت فاسمع اذاً حديثي

الفصل العاشر

« على شاطئ النيل »

اني لم اقتصر على ما بذلته أولاً . بل كنت ارصد خروجها حتى اذا علمت بوجودها في مكان اسرعت اليه فاتملى برؤيتها وكانت تراني فتتشاغل عني تارة وتنظر الي تارة أخرى . وعلمتُ مرةً بوجودها في الحمراء في جهتها القبلية حيث لا يزدحم الرجال ولا يكثر المتنزهون . فاسرعتُ وحقك الى ذاك المكان فوجدتها فيه وجارية سوداء جالستين بعيداً عن مركبتهما على مرتفع من الارض قريباً من الشاطئ يتأملان امواج النيل تصدم الجرف تحتهما . ورأيتها تمد يدها التي اخذت لبي واذهبت رشادي نحو رشاش الماء الذي يتناثر كاللآلئ من ضرب الموج في الجسر . ونظرتها وقد اماطت لثامها عن وجهها القمري تبسم فتتجلى انوار اسنانها اللؤلؤية من بين شفتيها العقيقيتين الرقيقتين حتى خيّلَ لي ان نورها ينعكس عن الماء فيعيد للنهار ضوءه الذي اخذ يضعف لميل الشمس للزوال

وبالجملة فقد تجلت لي أنواع الجمال وصنوف الكمال وأشكال الرقة والدلال في هذه الانسانة الظريفة والخلقة اللطيفة . ولا جرم كان الحب اعظم ما يتملك قلب المرء فيصرفه عن كل ما سوى الحبيب . ويسطو على جوارحه فلا تميل الا الى المعشوق ويعمي عينه فلا يرى فيه غير المحاسن والكمالات ويصم أذنه فلا يسمع عنه الا الثناء عن جميل الصفات

وعين الرضا عن كل عيب كليلة كما ان عين السخط تبدي المساويا

فوقفت من بعيد شاخصاً الى هذا الهيكل البديع لا أبغي التحول ولا اريد مفارقة المكان غير اني رأيت من الدناءة أخذ الفتاة على غرة لاستجلاء غوامض محاسنها واكتشاف مخبآت جمالها . ووجدت من الشهامة إظهار نفسي لها متعللاً بميلها وانعطافها ان رأتني وعلمت أني أقصد مقابلتها في كل مكان تذهب اليه

ولم أفعل ما يفعلهُ شبابنا من تعمد رؤية الغادات ولم أعمل أعمالهم القبيحة التي يعملونها في مثل تلك الاحوال مما لا يخفى عنك لاني لم أقصد مجرد استطلاع درجة جمالها وحسنها بل مرتبتها في الميل والألفة لشخص يريد حبها ليهنأ عيشه بها

فخرجت من مكاني وسرت نحوهما الى أن وصلت ازاءهما تماماً وهما لا تشعران بي فصفّرت بفمي صفرة ما كاد يصل رنينها الى اذانهما حتى التفتتا وراءهما فبصرتا بي . فاما الجارية فرجعت الى حالها ولم تبالي بوجودي لانها كانت مؤتزرة

واما الغادة فوصداقتك لقد ظهر الحب يتبرجرج في عينيها ويسطع نوره على جبينها فقد ارتبكت وتحيّرت وذهلت وتخبلت ولم تدر كيف تصنع حتى لقد اخذ منها الارتباك مأخذاً لم يجعلها تسبل الازار على رأسها او تعتدل في مكانها فظلت حاسرة وهي شاخصة في وجهي محملقة في عيني . وجرى الدم في وجهها فاحمر من الدهشة والبغتة حتى اشفقت منه عليهِ ان يتفجر

واما انا فلا أخفي عنك ما حل بي ازاء مارأيته منها وما ظهر لي من انفعالها امامي فقد جمد قدمي هنيهة في مكانه ودبّ قلبي ودق وانتفض

جسمي وارتعش واختلجت مفاصلي وغبت عن الوجود لحظة ما كان احلاها واعذبها

فتحقق لي وقوع الحبيبة في شرك غرامي الذي نصبته لها في تكرار مقابلتها وعلمت اني فزت بنتيجة ما بذلته من كثرة التردد على انظارها لان قلبي قرأ بعين الحب على صحيفة قلبها تلك العبارة التي انعكست على جبينها فظهرت واضحة لعين ذكائي وفراستي « لقد قاسمتك الحب فطب وابتهج »

دلائل الحب لاتخفى على احـدٍ كحامل المسك لايخلو من العبقِ

فطبت حقيقة وابتهجت وفرحت وسررت . ولا اعبر عن فرحي بالفرح ولا سروري بالسرور فهما اعظم واكبر ولكني عاجز عن التعبير والشرح وحسبك قولي اني لشدة ابتهاجي بنوالي مأربي من حبها لي

والعين تعرف من عيني محدثهـا ان كان من حزبها او من أعاديها

رجعت توًّا الى منزلي لاأطيق احتمال ما بى من الانتعاش ولا أستطيع حبس قلبي في صدري من شدة ضربات الفرح . ونمت قريراً مرتاح الضمير عاقداً نيتي على تحقيق ما رأيته منها من الانفعال لرؤيتي حتى اذا تحقق لي حبها . والحب كثير الظنون . عملت على تعجيل الخطبة وتنفيذ الاقتران بها لانى كما قدمت لك لاأرغب الا من تحبني وأحبها وتمتلك قلبي وأمتلك قلبها وقلب المرأة زمامها كما أخبرتك فلا أخاف تقلبها ولا أخشى غضبها متى ملكت قلبها

وازف وقت الغداء فدخل خادم وقال لابراهيم

أيسمح سيدي باعداد الغداء فان الموعد قد حل ؟

فانتبه فريد واخرج ساعته فاذا هو بعيد الظهر فنظر الى صاحبه متعجباً من مرور الزمن فوجده ينظر اليه بمثل تعجبه فتبسم كل منهما لصاحبه ثم قال ابراهيم للخادم . لا بأس . فتحول هذا وخرج والتفت فريد وقال عجباً كيف مضى النهار ولم نشعر به

قال ابراهيم انت منهمك بذكر حديثك وانا مشفق عليك فلا غرو ان سرقنا الوقت . واخذ بيده وتحول به الى غرفة الطعام حتى اذا اكتفيا من الاكل استأذن فريد في الانصراف على موعد اللقاء بالحمراء قبل الغروب

الفصل الحادي عشر

« الفتاة ملكة تاجها العفة »

ما جاء المساء حتى كان ابراهيم مع صديقه في العربة يقصدان شاطئ النيل ولما وصلاه نزلا واخذا يمشيان ببطء متكاتفين ولم يطل بهما المسير حتى قال فريد

اسمع تتمة الحديث وانظر ماذا ترى

قال قل فلست أقِل عنك إهتماماً به

قال أصبحت ويدي على اليراع فسطرت كتاباً للحبيبة هاك صورته حفظتها معي لانه اول ما تشرف بلثم يديها واجتلى محاسنها في خلوتها . وأخرج من جيب سترته محفظة صغيرة من الجلد فتحها واخذ منها ورقة نشرها وقرأ وابراهيم يسمع

« وحيدتي »

كتبتُ اوّلاً كتاباً رجع خاسئاً وهو حسير . وأكتب الآن اخاه ارجو قبوله او يكون الاخير . ولا اشرح فيه ما اجد من الوجد والغرام . ولا أصف ما عندي من الشوق والهيام . بل أحبس هذه العوامل لفرصة أحظى فيها بالاجتماع والقرب . فأفشي مكنون القلب . وأعرض أمامكِ جواهر الحب . فعسى ان يكون الموعد قريب الحصول . لأنال المنى وأبلغ المأمول .

— فريد —

ثم لما أتم القراءة طوى الورقة وأعادها الى مكانها في المحفظة ووضعها في جيبه والتفت الى صديقه وقال قد تلحظ عليَّ كتابتي في الخطاب شيئاً كان الواجب كتمانه الى ما بعد المقابلة . نعم ولكني رأيتُ ان أعلم مكانها في حبي الذي زعمته فكتبتُ لها شيئاً في المعنى . حتى اذا قبلت خطابي وأجابت بالحضور طابي . كان ذلك اعظم دليل على تحقيق مبادلتها الحب معي . فيقوى قلبي على مقابلتها وينطلق لساني في مخاطبتها والا ان كانت مزاعمي في غير مكانها من الصحة فهي على أي حال لا تقبل الخطاب بالمرة . وكيف تقبل فتاة خطاباً من رجل لا تعرفه ولا يقوم له في قلبها شفيع ؟ بل لو كتبتُ لها رجائي في مقابلتها لما تحصلتُ منها الا على الهزء والسخرية . وعلى ذلك تعلم اني لم أخطئ في عبارة الكتاب فقد لا يكون حبها عظيماً كما تصورت فتقرأ عبارة الخطاب فيميل قلبها ويتولد في فؤادها عامل الشفقة والرأفة

وبعد كتابة الكتاب ناديتُ القابلة فاعطيتها اياه واوصيتها ان تتلطف

في عرضه عليها وتحذر من اطلاع أحد عليه فذهبت وآبت بالفوز والنجاح فقالت . ويا برد ذاك الذي قالت على كبدي .

قالت ذهبتُ هذه المرة فقابلتني بالتأهيل والترحيب وأظهرت من علامات التكريم ما لم أرهُ من قبل فعجبتُ ولكنني ظننتها تكفر عما فعلته معي تلك المرة من الخشونة والغضب او أنها تقول لي اني أكرمكِ حتى اذا قلتِ عبارتكِ الاولى أنزلتُ عليكِ نقمة غضبي فأريكِ الفرق بين الكرامة والاهانة وبين من تحفظ كرامة نفسها وتصون ماء وجهها وبين من تبذله وتريقه .

غير أني لم اعبأ بالظن . فشجعتُ قلبي . حتى اذا خلا المكان وصرنا لا ثالث معنا أخرجت الخطاب وكنت مترددة في اخراجه . وقلت هل تسمح مولاتى بأخذ هذه الهدية ولا تردنى خائبة كل مرة . ثم سكتُّ أنظر ما يظهر على وجهها فرأيتها بين الاقبال والاحجام بل هي الى الاقبال على قبول الخطاب أقرب . ولم أرَ علامات الخوف والغضب التي رأيتها قبلاً . فمددت يدي اليها بالكتاب وقد سمعت وقع اقدام والدتها آتية فاسرعتُ بدسهِ في جيبها في هذه الفرصة كي لا تمانع في أخذه . وجاءت والدتها فجلست معنا

ومكثت هي بعدها يسيراً وقامت عنا ثم جاءت واظنها قرأته . فقد كانت عيناها بارقتين ووجهها محمرًّا . فجلست بجانبي . ثم قالت بعد برهة تخاطبني على مسمع من والدتها :

هل تحضرين بعد عصر الغد كي نخرج للرياضة معاً ؟

فاجبتها وقد فهمت مقصدها اني رهينة اشارتك . فسأحضر

وبعد قليل طلبت الاذن بالانصراف وقمت فذكرتني بموعد الحضور فأكدتُ لهـا أجابة طلبها مظهرة لها المنة أمام والدتها فشكرتاني . ثم جئت اليك .

فعلمت ايها الصديق من حديث القابلة اني قُبلت لدى الحبيبة وأنها تريد مقابلتي فارادت اصطحاب القابلة كي لا يظهر حالها امام احد توابعها وانها لم تعين مكان اللقاء وتركتهُ لي حيث أريد وأراه موافقاً

فطفقت أثني على القابلة احسن الثناء . ثم حذرتها من التخلف عن الذهاب اليها وأخبرتها اني بانتظارهما في الجهة القبلية من الحمراء في ذاك المكان الذي قابلتها فيه مع جاريتها السوداء على شاطئ النيل

وفي الموعد بادرت الى الملتقى فذهبت اليه مبكراً وانتظرت ساعة حسبتها شهراً لطولها ولم تنقضِ قبـل ظهور هلال سعدي الذي أضاء المكان بنوره

فنزلت من مركبتها بعيداً ومشت نحوي والقابلة خلفها ولم تقع عيني عليها تقرب مني وهي تتهادى في مشيتها وتتمايل حتى اختلجت مفاصلي ودق قلبي بشدة فكنت اضع يدي عليـه لتوهمي اني احبسه اوأعيقه ولكني عبثاً حاولت فقد كان كلما اقتربت مني ازداد خفقاناً واشتد دقاً حتى ظننته يخرج من صدري

ولا أثقل عليك ايها الاخ بطول الحديث فوحق صداقتك الشريفة اني بعد مقابلتها صرت اشد تعلقاً بها مني قبل ذلك فقد رأيت من حسن

رأيها ووفرة عقلها وأدبها ما جعلني أهيم في طلبها واستعجل الايام في تنفيذ الاقتران بها .

فقضيت معها في ذاك المكان ساعة من أسعد اوقات الحياة بل هي الحياة كلها وتوالت بعدها المقابلات فكنت ازداد شغفاً بها حتى صرت لا اقدر على الصبر يوماً دون رؤيتها . فاشتد هيامي وقوي رأيي في الاقتران والتمسك بها ولم تك هي اقل مني في هذا الرأي لولا الحياء فكانت تقول لي في ثنيات حديثها والخجل يغالبها . أني يا فريد لانقص عنك حباً لك وميلاً نحوك . واذا فاتحتها في مسألة القران رأيت ارتياحها بادياً رغماً عن شدة خجلها العذري

وقبل مرور الشهر على هذه الاجتماعات المترادفة حيث كنا في نفس ذاك المكان من الحمراء قالت ولسانها يتلعثم وشفتاها ترتعش مما هالني واوجست في نفسي منه خيفة . اني يا فريد بالرغم عني أتلفظ امامك بكلمة الوداع ولست عازمة على الرحيل من المدينة . بل على الاعتكاف في خدري أسامر الوحدة واؤانس الجدران فاننا معشر الفتيات لم نخلق لمجالسة الرجال ولا يليق ببنات الشرف الابتذال . ولقد جاريتك في البدء مسوقة بسائق الحب الشديد . ولا يزال يسوقني . ولكني ارى ان لا أتمادى في المسير معه فانما الفتاة ملكة تاجها العفة واخاف ان يسلبني القوم هذا التاج ظلماً وعدواناً

ومدت يدها للسلام ومشت ولا أدري كيف مددت لها يدي او كيف تركتها تذهب فقد كنت في غيابة التأمل حتى هجم الظلام وشعرت ببرد

خفيف فنقلت قدمي وقد اثقلت الهم ورجعت الى المنزل والغم يحاديني والكدر يؤانسني. غير أني ما لبثت ان راجعت كلامها حتى رأيت الحكمة تتدفق من بين احرفه وطلع نور الصواب يتلألأ منه فأضاء بصيرتي فعلمت انها خافت على شرفها ان يتحدث الناس بها وما أدراك ما الناس. وانها رأت بعين حكمتها ان تستفزني لنجاز موعد القران الذي لمحت لها به واشغلني عنه لذيذ الاجتماع فلم ترَ اصوب من اعتكافها عني كي تثير ببعدها اشواقي فأستعجل امر الزواج

وهنا ايها الاخ تجلّت هذه الفتاة الحكيمة امامي فرأيتها ملكة تحلّت بتاج العفة وتحصنت بحصن النزاهة وتوسمت بوسام الشرف وحسن السمعة فاعظمتها واجللتها وتمنيت لو يتاح لي الحصول عليها باسرع ما يمكن وفي اقرب أوان

ولطالما عوّلت على أن اخبرك بخبري وأطلعك على امري ويردني التردد والاحجام ومضت على انقطاعها أيام أنا في اثنائها بين عوامل الشوق ولواعج الغرام حتى تغيرت احوالي وضعفت قوتي فلم أرَ بدًّا من تنفيذ أمر الزواج بها فرجوت والدتي في الذهاب مع القابلة الى منزلهم فذهبت كما تذهب النساء لانتقاء العروس لاولادهنّ ورجعت كما اخبرتك معجبة بما رأته من حسن الوفادة وعظيم الاستقبال غير أنها لم توافق على امر الخطبة . فهي تزعم انها رأت ذبولاً في عينيها ونحولاً في جسمها واصفراراً في وجهها

فضاق الفضاء في عيني عند سماعي كلامها عن عدم الموافقة أولاً

وعن مرض الحبيبة ثانياً وعهدي بها سليمة قوية لا يظهر عليها ما يدل على ضعف في البنية او فقر في الدم . وتراني من يومها لا يهنأ لي بال ولا ينصلح لي حال وأود من صميم فؤادي الوقوف على سبب النحول وسر الذبول

الفصل الثاني عشر

« ويأتيك بالاخبار من لم تزود »

أرخى الليل سدوله وفريد لم ينته من حديثه وابراهيم يصغي له بكليته فلم يلتفتا الى ما حولهما ولم ينتبها للظلام كأنَّ أنهما كهما اظلم عيونهما فجعل لديهما الليل والنهار سواء فكانا يسيران نحو الجنوب وسائق العربة يتبعهما بها من بعيد حتى أتى فريد على أخر الحديث وأرسل من قلبه تنهدة حارة فزع لها ابراهيم اشفاقاً على صديقه فقبض على ذراعه وقال له عجباً لك أين حزمك وصبرك ؟

قال أنَّى يكون لي صبر والايام ضدي والدهر من اشد الخصوم ؟

قال لم يكن ثمة شيء من ذلك وأنما هي أعراض لا تلبث ان تزول

قال اسأل الله تحقيق ظنك

ووقف ابراهيم وأخرج ساعته فلم يستطع تمييز عقاربها وكان الظلام حالكاً والقمر يظهر متأخراً فجذب فريداً ورجع به الى المركبة فركباها وعادا ولولا ضوء مصباحيها لما اهتديا اليها

ولما وصلا منزل فريد استأذن ابراهيم في الذهاب تواً الى بيته ليرى طريقة يكتشف بها سر الذبول . فأذنَ له فريد على ان يوافيه بالاخبار اولاً

فأولاً فوعده خيراً وامر السائق بالمسير فأطاع . وقبل ان تتحرك المركبة التفت ابراهيم الى صديقه وقال همساً هل علم صادق بأمر الخطبة ؟

قال لم يعلم هو ولا اهل بيته لأن والدتي لم تظهر لهم سبب مجيئها الا قصد الزيارة مجرداً والتقرب منهم والتعرف بهم فاظنهم لم يعرفوا السبب الا ان تكون «هي» وضغط على يد صاحبه ففهم انه يعني «بهي» حبيبته فقال له:

حسناً . استودعك الله . واشار الى السائق فساق قاصداً المدينة

وشيع فريد العربة بنظره حتى توارت . وتحول الى الباب وقصد غرفته فالقى بنفسه على سريره وكاد يغرق في بحار التأمل لولم ينبهه صوت قادم الى غرفته ففتح عينيه واخرج سلسلة ساعته واخذ يطويها وينشرها على سبابتـه . واذا القادم والدته فانتصب على قدميه وكان يجلها كثيراً ويحترمها شأن المهذب الكامل . فحياها وعمد الى شمعة اشعلها والتفت الى والدته فابتدرته بقولها

ألا يتناول ولدي العشاء فاني منتظرته ؟

قال باحترام : اجل . سأبدل ثيابي واحضر الى غرفة الطعام

فتركته وخرجت لتأمر بتهيئة الاكل واعداد المائدة . ولما جاء أكلا معاً وجلسا ما طاب لهما الجلوس ثم قام هو الى غرفته وقضى ليلة العاشق الوامق والهائم المفارق

اما ابراهيم فذهب الى منزله وتناول عشاءه وقصد بيت صادق حيث وجده وسلم عليه وجلس معه . وجاءتهما القهوة فشرباها واعقباها بصمت طويل كان ابراهيم في اثنائه يفكر في طريقة يفتح بها باب الحديث

لكي يذكر فريداً او يستطلع بواسطتها شيئاً من سر الذبول . واذا بصادق يعتدل في مجلسه فانتبه له ابراهيم وقال على سبيل المؤانسة . كيف حالك ايها الصادق ؟

قال : حمداً وشكراً . كيف حالك انت ؟ وكيف حال حضرة الدكتور ؟

فتنفس ابراهيم نسيم الفرج واراد ان لا يقطع هذا الحديث فقال : بخير ونعمة . نسأل الله دوام هذا الحال . واما حضرة الدكتور فمشوقٌ جداً لرؤيتكم وقد حملني تحيته اليك . وعظيم شكره لك

قال صادق . شكراً له ما اعظم آدابه واكرم اخلاقه . ليتهُ شرفنا بحضوره معك

قال اشكرك عنه . وقد كان يود الحضور لولم تعقهُ كثرة اعماله . فهو يقضي اكثر الصباح بالمستشفى ثم يعود مرضاه وبعد الظهر يتم عياداته . وقد نال ثقة العموم فازدادت اشغاله وكثرت اعماله . ولولا ما اقعده من انحراف صحته لحضر الليلة معي . شفاه الله وعافاه فانه خليق بدعاء الخير

قال صادق لا بد من ان نعوده غداً . فهل تذهب معي ؟

قال ابراهيم لك ذلك وموعدنا الساعة العاشرة صباحاً وسأحضر اليك هنا ونذهب معاً في عربتي فنؤدي له واجب الزيارة لا سيما وانه كان يتوقع زيارتك على اثر موعدك معه

قال نعم . ولكن وحقك ايها الاخ عاقتني موانع وشواغل عديدة . وتنهد طويلا وسكت

فلحظها ابراهيم عليه وخالج ظنهُ انه لابد من ان تكون بعض شواغله

مرض كريمته الذي تكلمت عنه والدة فريد ان لم يكن ذلك كل الشواغل . فقال وقد أراد السكوت عند هذا الحد للتمسك بالوعد

أعانك المعين ايها الصادق الامين . ثم حول تيار الحديث فقطعا شطراً من الليل حتى اذا اراد الانصراف ذكر صادقاً بميعاد المقابلة وتواعدا عليها وانصرف يعلل نفسه باستطلاع السر في الغد

وبكر بكور الطير ليطرف فريداً بخبر حضور صادق الى منزله في الساعة العاشرة صباحاً فبعث اليه بخطاب على يد خادم وأخبره ان لا بد من تسليمه اليه يداً بيد قاصداً بذلك الاعلان المفرح ادخال السرور على قلب صديقه وان يعلم بالميعاد فلا يغيب عن المنزل

ولا تسل عن سرور فريد فقد جاء من اشغاله الى منزله لكي يتفرغ للمقابلة التي كان يرتجف فؤاده لها ارتجافاً شديداً لسبب لا يعلمه هو نفسه اذ كان يسأل نفسه عنه وهو لا يغيب عن فكر المغرم العاشق . فكأنه كان يغالط نفسه او ينكر عليها اشتغال قلبه حياء

ولما جاء الموعد سار الى باب المنزل ولم يك غير يسير حتى وقفت على الباب عربة فوقف الدم هنيهة في عروق فريد لوقوفها ولكنه تجلد وتقدم الى صادق فابتسم له ابتسامة الفرح وسلم عليه سلام من جاء بعد طول الفراق ثم مدّ يده بنشاط الى ابراهيم فسلم عليه واخذهما الى غرفة الاستقبال

ولم يقرّ قرارهم حتى اخذ صادق في الاعتذار عن عدم الحضور لقلة امكانه الفراغ من الاشغال والاشتغال واضطراب البال

فقال فريد وهو يظهر عدم المؤاخذة . اني اشكرك على اي حال .

وقد تشرفنا بقدومك . واسأل الله ان يعينك على اعمالك ويريح بالك

ثم قطع حديثهما حضور القهوة واشتغالهما بشربها حتى اذا فرغا من شربها قال صادق . وحقك قد تعبت كثيراً وعيل صبري . وحوّل وجههُ نحو ابراهيم وسكت

ففهم ابراهيم انه ربما يودُّ استشارة فريد باعتباره طبيباً ويخبره عن مرض كريمته . وهو كل ما يريده لصديقه . فانصرف عنهما مظهراً رغبتهُ في قطف الزهر من حديقة المنزل

فلما خرج اعاد فريد الحديث متجاهلاً . وقد نبههُ خروج ابراهيم فلحظ الامر فقال . اظن حضرة الاخ يتعب في تأجير اطيانه لكونه وحيداً لا يعاونه احد

قال صادق لا . وانما التعب من امر داخليّ منزليّ محض . ولقد جئت لزيارتك واستشارتك فيه . فهو مرض عارض ألمّ بكريمتي

قال فريد وهو يحاول اخفاء اهتمامه . وهل تعرف حضرتكم شكواها؟

قال انها تشتكي ضيق التنفس وألمَ القلب والكبد وعسر الهضم وتلبك المعدة

قال عجباً ! وقد راعه الامر واشفق على الحبيبة فطاش عقله . ولكنه ادرك موقفه فقوى عزمه وقال :

اظنها تأكل على غير نظام في المواعيد او تتناول عشاءها متأخرةً وتذهب الى فراشها قبل الهضم فتتلبك المعدة طبعاً ويختل نظامها . او يكون الهضم قد ابتدأ فيقف وهنالك الطامة الكبرى . او هي تتعرض

للبرد كثيراً ولا تحفظ نفسها منه . فارى ان تنبهها الى وجوب اتباع النظام في الاكل واجتناب النوم قبل فراغ الهضم . فاذا تناولت عشاءها الساعة السادسة مساء لا تذهب الى فراشها قبل العاشرة . وان تحفظ من البرد ولا تتساهل في التعرض له ابداً . . وسأكتب تذكرة بدواء يساعد الهضم لا بأس من ان تتناوله بعد انتهائها من الطعام . فعسى ان يكون فيه الشفاء التام . وسكت قليلاً ثم اردف كلامهُ قائلاً ببطء : وان رأيتَ ضرورة ذهابي الى المنزل لعيادتها فبكل ارتياح اقوم بذلك خدمة اخوية احوز بها الشرف والفخر

قال لك الشكر الزائد . فان شئت تشريفنا بعد الظهر زدتنا منة .

قال بكل ارتياح . فانتظرني الساعة الرابعة

فشكره صادق على تلبيتهِ لدعائهِ . ومكث بعدها قليلاً واستأذن في الانصراف وودعهُ وخرج ورافق ابراهيم الى المركبة وشيعهما فريد اليها حتى تحركت بهما وهو لم يبدِ شيئاً لصديقه خوف ملاحظة صادق ولكنه ترك فهم المسألة لذكائه المعروف لانه كان يتحقق عوده اليه ليطمئن على الامر

الفصل الثالث عشر

« سر الزبول »

وعاد فريد الى غرفة الاستقبال في منزله حائراً مرتبكاً خائفاً وجلاً يحسب لمرض الحبيبة ألف حساب فتارة يتوهم سرَّ ذبولها الحب والغرام

والعشق والهيام فيشفق عليها ويحن اليها ويلوم نفسهُ لانهُ كان السبب في مرضها وأصل شقائها . وتارة يظن مرضها امراً مقضياً فيبتهل الى الله تعالى ان يرفعه عنها . وبالجملة فقد تجاذبته الافكار وتقاذفته الهواجس وهو صاغر لهـا مستسلم لعواملها لا يفتكر بنفسه ولا يحسب الا حساب الساعة الرابعة من مساء يومه فكان يستقدمها تارة ويستأخرها أخرى

واذا بابراهيم دخل عليه وجلس بجانبه وابتسم له فافتر عن ثغره متكلفاً فعجب من حاله وسأله قائلاً : لعلك نلت الامل وما هو فوقه ؟

قال انما انال الامل بحسن مسعاك . فشكراً لك . ولكني آسف لما ذكره صادق

قال وما قال ؟

قال انها مريضة تشكو ضيق التنفس وعسر الهضم وتلبك المعدة وألم القلب والكبد مما جعلني انتفض فزعاً ورعباً وخوفاً واشفاقاً . وقد دعاني لعيادتها فأجبته وضربت له الساعة الرابعة من مساء اليوم موعداً للزيارة .

قال خفض عليك فالموعد قريب . وستقف بنفسك على الحالة ويطمئن قلبك . فما راء كمن سمع . والآن ائتنا بغدائنا لئلا نصاب بعسر الهضم نحن الآخرين ! !

فابتسم فريد ضاحكاً لمزاح صديقه وقام ينفض غبار الشواغل وطلب الطعام فجيء به

وبعد الغداء اخذا في الحديث . ودار بينهما الكلام عن أمور كانت ذكرى الحبيبة اهمهـا واخذا يشكران ربهما على تسهيل اطلاعهما على ما

كان لهما الشغل الشاغل . وقرَّ قرارهما على ان يذهبا في العربة الى منزل ابراهيم ومنـه يذهب فريد الى بيت صادق ثم يعود الى صاحبه فيخبرهُ بالامر ويطلعه على سر الذبول وسبب النحول كي يطمئن لاطمئنان صديقه وانما وقع الاختيار على ركوب العربة ليرجع اليه سريعاً

وما دقت الساعة الثالثة حتى دق معها قلب فريد . فصعد الى غرفته وغير ملابسهُ على ما شاء ونزل فركب المركبة مع ابراهيم قاصدين منزله حتى اذا كان الميقات خف للذهاب اذ وجد صادقاً في انتظاره فحياه وجلس معه في غرفة الاستقبال ريثما اشعر اهل المنزل بحضوره وكان قد اخبرهم به من قبل . فعرفته حبيبتهُ وحسبت لساعة لقائه حساباً . واخذت تجمع قواها وتشجع قلبها ولكن ذهب اجتهادها في التجلد ادراج الرياح وغلب عليها الضعف النسائي عند ما أخبرها والدها بقدوم فريد فازداد وجهها اصفراراً وهو ذلك الوجه الجميل الذي قال عنه فريد مرةً انه اشفق عليه ان يتفجر لشدة ما رأى من احمراره . وارتخت مفاصل ركبتيها وارتعش جسمها وحلَّقَ فكرُها في جو الحيرة فلم تقف عن التأمل الا عند شعورها بقادم نحوها فاسترجعت قواها وتهيأت لمقابلته واذا به والدها فوقفت له فابتدرها قائلاً :

كيف صحتكِ اليوم يا ابنتي ؟

قالت الحمد لله على أي حال . ووضعت يدها على صدرها مما يلي القلب وأطبقت قليلاً جفونها وقد اغرورقت عيناها . فعرف والدها شكواها وفهم اشارتها فشفق عليها وقال لا بأس . فها هو الطبيب قد حضر وسيزول كل شيء بلطف الله فاستعدي للذهاب اليه الآن معي فهو في غرفتي . ومد

يده اليها فرجعت الى الوراء واخذت رداء أسبلته على رأسها وأرسلته على كتفيها فغطى ظهرها ومعظم جسمها وجمعت اطرافهُ الى الامام فسترت به صدرها ومشت وراء والدها تتعثر في اذيال الارتباك والخبال لا تكاد تهتدي الى طريقها لشدة ما اعتراها من الدهشة والبغتة حتى اذا وصلت الى باب الغرفة وقفت هنيهة فاستحضرت قوتها وشجعت قلبها وقد أحست بشدة خفقانه فضغطت عليه بيدها وولجت الغرفة تحيطها السكينة ويجللها الهدوءُ والوقار ومشت ببطء حتى وقفت بجانب والدها وهي تود لو تغور بها الارض او تخطفها السماء . . واما فريد فلا اصف حالته في هذا الموقف الرهيب بل اترك معرفة ارتباكه و بغتتهِ لذكاء القارئ وفطنته وأظنهُ لا يتعب كثيراً في معرفتها خصوصاً اذا كان ممن مسهُ سهم الهوى وهز قلبهُ نسيم الغرام

ولقد جمع فريد قوتهُ ما استطاع كي لا يلحظ صادق منه شيئاً . وظل ساكتاً لا يتكلم ولا يرفع بصره نحوها حتى قام والدها فاشار اليه قائلا

ها هي يا حضرة الدكتور . . واشار اليها أن تقدمي اليه

ولكنَّ فريداً لم يمهلها تصل اليه بل هب من مجلسهِ وسعى اليها وهو يبالغ في اخفاء عواطفه وحبس لسانهُ عن ان يعثر بما لا يجب ولما وقف أمامها التفت الى والدها وقال له وهو يحافظ على العوائد الوطنية والآداب الشرقية

هل اخذت من الدواء الذي كتبته لحضرتكم في التذكرة ؟

قال نعم . واشار اليها أن اشرحي لحضرتهِ ما تشعرين به

فقالت وهي تحاذر خيانة الضمير وضعف الجلد : اشعر بثقل في المعدة كأن ما تناولهُ من الطعام على قلتهِ لا يهضم . وضيق في التنفس كأن

رثّاي مضغوطتين او مقبوضاً عليهما بيد من حديد . وألم في القلب والكبد والاحشاء فضلاً عن الخمول وارتخاء الاعصاب وانكسار النفس فقد يمضي النهار ولا تفارقني الكآبة ولا يفارقني ضيق الخلق وسآمة العيش

فاعجبت فريد فصاحة لسانها وطلاقتهُ وأحس بقلبه ينجذب نحوها وشعر به يقول لا بأس لا بأس . فعاد لاستجلاب قوته واستحضار عقلهوهو يشجع جنانه على الثبات في ذاك الموقف الحرج . والتفت اليها وقال

اظنك تأكلين على غير نظام في المواعيد . فارتعشت عند سماعها كلامه فلحظ ذلك عليها ولكنها اسرعت بقولها :

ان من عادتي المحافظة على مواعيد الأكل ومع ذلك فان هذا الالم ألمّ بي قريباً فلا اظنه مسبباً عن الاكل وكيف وانا لم اخلف عادتي قط

قال فريد وهو يتقد هياجاً ـ . ان المرض اكثر ما يكون من البرد فاحفظي نفسك منه وسأكتب بالدواء تذكرة لحضرة الوالد واصف له اللازم فعساكِ ان تحافظي على تناوله وان شاء الله ففيه الشفاء والتفت الى والدها وقال له همساً أرى ان اختبر نبض عروقها وانظر لسانها

فقال له من فوره وعلامات الثقة به تتلالأ في عينيه

لم آذن لك بدخول منزلي والاطلاع على اهلي الا وثقتي بك عظيمة فيكفيك ذلك . فشكره فريد على حسن ظنه وجميل اعتقاده . وهو لم يكن ليستأذنه في هذا الامر لو كان خالي القلب . وانما هو المحب كثير الحذر شديد الوجل يرى كل ما حوله عيوناً للعواذل عليه

فعطف فريد على حبيبته ومد يده المرتجفة وقبض بها على معصمها

فاعترته هزة كمن يلمس الكهرباء . ولا جرم فان كهرباء الحب أشد وأقوى . ولولا انتباهه العظيم وشدة حرصه وحذره لظهرت عليه . فتشاغل باخراج ساعته والقى عليها نظره موهماً انه يحصى دقات العروق وانما كان يحصى دقات قلبه ورعشات اعضائه واختلاجات مفاصله

ثم تنبه واظهر اكتفاءه بما شاهد خوف الفضيحة فرجع الى الوراء وجلس مكانه واخرج من جيبه تذكرة واخذ يكتب الدواء . فاشار صادق لابنته بالانصراف فاختلس فريد النظر اليها ولمحته هي بطرفها في اثناء خروجها فالتقت عيناهما وتقابلت انظارهما فتكلما سرًّا بما لم يقدرا عليه علناً وسلَّما بالجفون وحيّيا وتساءلا وتعاتبا وآخذا وعذرا . فما هي الا كلمح البصر حتى كان كل ذلك ثم استحضر فريد عقله وكتب ما اراد واستأذن في الانصراف فشيعه صادق الى العربة شاكراً افضاله حاملا جميله فأثنى عليه فريد ووعده بتكرار العيادة في صباح الغد ليقف على مفعول الدواء وودعه وانصرف قاصداً منزل ابراهيم فوجده في غرفة الاستقبال ينتظر مجيئه فمشى اليه وجلس بجانبه ساكناً . فخفق قلب ابراهيم خوفاً وانتفض فرقاً والتفت الى فريد وقال :

كيف وجدت الحالة يا صاح ؟

قال أتظنني وعيت ان اتحقق او افحص ؟ وعلى كلٍّ فالحالة لا تسرُّ ولم افهم السبب . وقد قالت انها تشكو عسر الهضم فكتبت لها عن دواء يساعده . ووعدت بتكرير العيادة غداً . أسأل الله ان يوفقني الى ما فيه شفاؤها وشفائي

تخاف ابراهيم على صديقه فعمد الى تسليته ثم سأله الخروج للرياضة فاطاع حتى اذا كان المساء طلب الذهاب الى منزله بالحاح فاوصله ابراهيم وودعه وعاد مشغول البال عليه

وقضى فريد ليلتهُ لم ينم فكان يقرأ في كتبهِ تارةً ويغرق في بحر تأملاته تارة أخرى حتى مطلع الفجر فالقى برأسه على الوسادة واغمض جفنيه ساعة ثم قام مذعوراً فغسل وجهه وارتدى ملابسه وتناول فطوره ونزل الى المستشفى وعاد منه الى المدينة فقصد منزل صادق فألفاه هناك وسلم عليه وبعد تبادل عبارات الاحترام سأله عن الحالة فطلب اليه ان يصعد اليها ليقف منها بنفسه على حالتها . فما اسرع ان اجاب فاصطحبه صادق الى غرفته وجاء بها اليه فكانا هذه المرة أشدَّ جلداً واقوى قلباً . فوقف لها فريد وقال كيف انتِ اليوم ؟

قالت لقد تحسن الهضم نوعاً بفعل الدواء واما التنفس وآلام القلب والكبد فكما هي

قال اجعلي يدك على مواضع الالم

فكشفت الرداء عن صدرها قليلا فظهر من تحته خصر نحيل وقدٌّ رشيق فبهت فريد وكاد بصره يزيغ لولا ان شجع نفسه وقوى قلبه ولم تضع يدها على شيء من جسمها قبل ان فاجأها بقوله وقد احتدَّ في الكلام

ماذا ارى ؟ أرى المشد ؟؟ متى اتخذته ؟ فتنبه صادق لهذه الضجة ونظر الى فريد متعجباً ولم يفهم من قصده شيئاً . اما هي فقالت ولم تفهم قصده ايضاً : نعم هو المشد (كورسيه) وقد استعملته قبل اليوم بسنة تقريباً

وظهر عليها الحياء والخجل فلم يبال بل قال :

لا جرم كان المرض بسببه وكان سر الذبول وأصل الداء . فبادري الى خلعه فلا شفاء الا بذلك . واستمري على تناول الدواء حتى احضر ثانياً واياكِ ان تعودي لشده . أتهصرين احشاءكِ وتضغطين امعاءكِ ؟؟

فخرجت من عنده مترددةً في التصديق بقوله . اما هو فالتفت الى والدها واخذ يشرح له مضار المشد وسوء عاقبة استعماله حتى قال انه اصل الداء ورأس البلاء وما تمرض امرأة تلبسه الا وهو السبب في مرضها وأصل سقمها وسر ذبولها . وأوصاه كثيراً بمنعها عن شده ووعده بالعيادة في فرصة اخرى وودعه وانصرف مستريح الضمير هادئ البال لوقوفه على سر الذبول

الفصل الرابع عشر

« قد يقتل المرء أمانيا »

قضى ابراهيم ليلتهُ الماضية قلق البال مشغول الفكر ضيق الصدر على صديقه فريد وكان صادقاً في صحبته مخلصاً في ألفتهِ فنام اقل من عادته وقام مبكراً يستعجل النهار ويستقدمهُ حتى اذا ظهر النور هجر الفراش واخذ في الاستعداد للنزول كي ينتظر صاحبهُ في غرفة الاستقبال وكان يتيقن حضوره اليه هذا الصباح بعد ذهابه الى منزل صادق ليخبره عن رأيه في مرض حبيبته وما كان يتيقن ذلك الا لما بينهما من الصداقة المتينة والالفة الصادقة

فنزل الى غرفة الاستقبال وما عتم ان جاء فريد وعلى وجهه علامات التفكير مشوبة ببعض الارتياح فاطمأن لمنظره وهدأ عليه باله حتى اذا جلس وقرّ قراره قال له :

خيراً ان شاء الله فاني اراك منشرحاً

قال خيراً . وتململ في مجلسه وتنهد بتذمر وتحرق . فعجب صاحبه لحاله وقال له :

لا محل للتنهد وآيات الارتياح مكتوبة بأحرف بينة على جبينك المنبسط بعد تجعده السابق . ألم تقل خيراً ؟ أبعد الخير شرّ ؟ قل كيف رأيت الحالة ؟

قال اسأله تعالى ان يمنع الشر ويذهب الضير فالحالة اقل خطراً مما ظننتهُ اولاً وقد عرفت سر المرض ولذلك تجدني مستريح الضمير ولولا ما يخامرني من الهواجس والمخاوف لرأيتني اعظم ارتياحاً واكثر فرحاً

قال لم افهم منك شيئاً قل كيف رأيت الحالة ؟

قال رأيتها لا تزال مريضة ولكنني عرفت سبب المرض وامرتها باجتنابه فلا تلبث ان تصح وتشفى ولقد عرفته بمعجزة لا انكرها فاني بعد مفارقتك لم انم من الليل شيئاً بل قطعته بين القراءة والتفكير فكان مما قرأته كلاماً عن المشد الذي تلبسه النساء لشد اوساطهنّ وتصغير خصورهنّ ولما ذهبت اليوم وجدت خصرها مشدوداً به وهو يظهر لأقل تأمل فعلمت لأول وهلة أنه سبب الداء فمنعتها عنه واوصيت والدها أن لا يسمح لها بشده وفصلت له ما ينجم عنه من الامراض والمضار فوعد بمنعها

ثم ودعته وجئت واعداً اياه بالعيادة في فرصة اخرى . . ولكنه داخاني الوسواس والخوف من ان يكون المشد قد أثر في أحشائها كالقلب والكبد فتصعب مداواتها ويضعف الامل بطول حياتها

فعجب ابراهيم غاية العجب من كلام صديقه عن المشد وهو يرى قرينته واخواته واكثر قريباته يستعملنه فصمم على منعهنّ ولكنه خاف على صاحبه فعمد الى تسليته وقال له :

ارى ايها الاخ ان لاتشغل فكرك وتجهد عقلك فقد يكون الضرر اقل مما تظن فانها بعد تركها للمشد لاتلبث ان تعود الى صحتها وقوتها

قال فريد نعم هذا عين ما اقولهُ خصوصاً وهي لم تستعمله الا قليلاً كما اخبرتني فان دامت على تركه مع تناول الدواء ليساعدها على الهضم لا يبعد ان ترجع الى حالتها الاولى من الصحة والعافية

وسكت فمرت عليهما لحظة يفتكران والاهتمام ظاهر على وجهيهما ثم التفت ابراهيم الى صديقه وقال له. لقد نبهتني الى مسألة المشد فشغلت بالي

قال كأني بنساء منزلك يتخذنه ! !

قال نعم. بل اكثر نساء العائلة ايضاً. وما كنت أظنه مضرًّا وانا انظر جميع نساء الغرب تستعمله بلا استثناء

فتأوه فريد وتنهد وقال . كم من آفة تسللت الينا من الغرب فقابلناها بالترحيب لما ثبت في اذهاننا من حسن مدنيته واخذناها عنه وقلدناه فيها لم ننظر اليها بعين البحث حتى اذا تمكنت منا وسرت جراثيم حب استعمالها في نفوسنا فتكت بنا وعزّ علينا استئصالها . . الغرب ايها العزيز يصرخ

الآن من المشد صراخ من تحرقه النار ويستغيث من فتكه كمن وقع في اليم وحمله التيار . وكم غير المشد من الاشياء المضرة يريد الغرب ان يغمض عينيه ويفتحهما فلا يرى لها بين اهله أثراً . . كم يهرب الغرب من عار غير المشد واختراعه . الغرب ايها الصديق اضر العالم بالمشد وامثاله ضرراً بليغاً لا يقدّر . وهو نفسه يوبخ نفسه على ذلك ولهذا تراه الآن منتصباً يمنع النساء عن استعماله كي يبرر خطاءه ويستغفر عن ذنبه

قال ابراهيم عجباً ! !

قال لا تعجب فضرر المشدّ اكثر بكثير مما يخطر على بالك ويمر بذهنك . . فعليك بحق الصداقة ان تمنع النساء عنه ماقدرت فتنفع البلاد وتخدم العباد . وقد عزمت ان اجمع الاصدقاء في مجمع حافل فأنتصب بينهم متكلماً عن اضرار المشدّ وآراء عظماء الغرب انفسهم فيه عسى ان ترجع سيداتنا عن اتخاذه آلة جهنمية لضغط احشائهنّ وعصر أمعائهن . . فكم قرأت في المجلّات الغربية عن سيدات توفين وكان المشدُ القاتل الاثيم لهنّ

قال ابراهيم انك تخدم الانسانية بما عزمت عليه من دعوة الناس وارشادهم الى مضار المشدّ فعسى ان يقل استعماله فقد كرهته وكرهت ان أراه . جزاك الله خيراً

ولما جاء الظهر وحلّ موعد الغداء امر ابراهيم باحضاره فجيء به . حتى اذا أكلا كفايتهما عادا الى الحديث وقد اجتهد ابراهيم كثيراً في تحويل افكار صديقه الى الفكاهات الادبية وما شاكلها حتى راق باله وهدأت هواجسه

ولما جاء ميقات الرياضة خرجا في العربة الى جسر الجبل وعادا الى الحمراء فتناولا العشاء في منزل فريد وقطعا شطراً من الليل في المسامرة والحديث ثم رجع ابراهيم الى منزله وطلع الآخر الى غرفته فنام قرير العين لوقوفه على سر مرض حبيبتهِ وأصل ذبولها شاكراً ربه طالباً اليه ارشاده لما فيه شفاؤها

الفصل الخامس عشر

« جناية أوروبا »

وأخذ فريد في اعداد معدات الحفلة التي وعد بها فلما تأهب للعمل وكان الوقت صيفاً اصلح حديقة منزله ورتب فيها المقاعد على احسن نسق فكان المنظر مبهجاً والاحتفال عظيما . ودعا كبراء المدينة وعظماءها من الاعيان والحكام والاخوان والاصحاب فأرسل الى كل منهم بطاقة الدعوة مطبوعة على هذه الصورة :

حضرة الانخم

بما ان مهنتي تدعوني للاطلاع على جميع الآلام والامراض فقد اطلعت منها على ما لا يحصى وباشرت ما لا يحصر وكنت اصف لكل داء دواءهُ الذي قررته له آباؤنا الحكماء من قبل او ما اكتشفه الاطباء العظماء من قديم وحديث فكان بقدرة الله يتم بواسطته شفاء غالب المرضى

الا ان داء وبيلاً يختص بالنساء ظهر حديثاً لم تكن اجدادنا تعلمه وفشا بينهن ففتك بأكثرهنَّ فتكاً ذريعاً حتى صارت من تموت من

الغربيات عموماً والمتمدنات من غيرهنَّ خصوصاً تذهب شهيدته الا قليلاً وهنَّ غير شاعرات

وانما قلت من الغربيات عموماً لان جرثومة الداء خرجت من الغرب ولذلك قام علماؤه وحكماؤه قومةً واحدة لمقاومته واخذوا في وصف الدواء الشافي منه

واني خدمةً للانسانية ودرأً لشر هذا الداء الخبيث عن نساء بلادنا عزمت هذه الليلة على دعوة العقلاء امثالكم ليسمعوا من لسان طبيبٍ وصف هذا المرض وأعراضه والدواء الوحيد لاستئصاله عسى ان يوفقنا الله ويمنحنا قوة نقف بها في وجهه كي لا ينتشر بين نسائنا فيهلكهنَّ او يضرّ بهنَّ . وعسى ان تشرفونا في منزلنا بالحمراء في الساعة الرابعة من مساء اليوم

الداعي

الدكتور فريد

ولما تم توزيع اوراق الدعوة وأخذ كلٌّ من المدعوّين بطاقته واطّلع عليها اشتغلت افكارهم وحارت افهامهم وانتظروا بشوق قدوم تلك الساعة

ووصلت احدى تلك البطاقات الى يد صادق فعرف انه لا داء غير ما قال له عنه ولا مرضٍ الاّ المشدّ . وقد تحقق ما ذكر اذ كان يرى ابنتهُ تتقدم الى الصحة يومياً بعد تركها للمشدّ فعزم على تلبية الدعوة والذهاب في الموعد

ولم يحلّ الميقات حتى توافدت الوفود وتقاطر المدعوون الى منزل فريد فكان يستقبلهم وابراهيم بالبشاشة والاكرام وحالما يجلس احدهم كان

يؤتى بالقهوة اليـه . حتى اذا تم عقد نظام الجمع وغصت بهم الحديقة والغرف المطلة عليها قام فريد وكان جالساً بجانب صادق يحادثهُ وربما كان يسأله عن صحة كريمته ويستفسر منه عن حالتها . وصعد على درج يرتفع عن الارض قليلا تكسوه سجادة عجمية جميلة الشكل وفي منتصف الصف أمام الجمع صورة معلقة مسدول عليها ستار فلا يظهر منها غير جزء من اطارها الخشبي المزخرف

فلما وقف فريد في موقف الخطابة على الدرج اتجهت اليه الانظار وتحولت نحوه الافكار ولما رأى تطاول الاعناق اليه ابتدأ بالكلام فأنصت الجمع فقال :

أيها السادة العظماء والاصحاب الاعزاء

أرحب بكم وأهديكم شكري لتلبيتكم دعوتي وتشريفكم بيتي واشكركم عن الانسانية شكراً جزيلا . كيف لا وقد جئتم اليوم مشمرين عن ساعد المساعدة للوقوف على معرفة داءٍ فاتكٍ لتردوه والتحقق من دوائهِ لتصفوه فتخدموا الانسانية وتنفعوا العباد . فعسى الله ان يهدينا الى سبيل الرشاد ويوفقنا الى ما نرجو انه اعظم موفق واكرم هاد

وبعد فكلكم يعلم ما للطب من الفضل على العالم اجمع فهو أساس الاعمال وسيد الفنون ولا يسعنا الاّ الاذعان لاحكامه اذا اعترانا ألمٌ او مرض .. ومن يتصفح تاريخ الطب من نشأته الى يومنا هذا يرى اكتشافات الاطباء العظيمة من التلقيح الجدري واستعمال المصل في علاج الدفتيريا وابحاثهم في علاج الكوليرا وكيفية انتشارها والوقاية منها واكتشاف

حقيقة الاختمار وعلاج الكلب على يد باستور وتقدم علم الجراحة واستعمال الكهرباء لشفاء الامراض وغيرها من الاكتشافات التي لايحصى عددها ويتعذر عليَّ ايرادها لضيق المقام . فطالما انتشل الدكتور جنر باكتشافه التلقيح ألوفاً من الناس كادوا يهلكون من الجدري . وكم حفظ الدكتور رو (ROUX) اطفالاً من غائلة الدفتيريا . وكم غيرهم من الاطباء نفعوا العالم وحفظوا حياة الناس من فتك الامراض الوبيلة كالكوليرا والطاعون وغيرها[1]

يرى كل هذه الاكتشافات الباهرة ثم يعجب اذ يعلم ان الطب مع كل ما ذكر لم يزل عاجزاً عن احدى العلل وكيف له بها وانما هي داء اوجده عقل الانسان وصنعت جراثيمه يدهُ الأثيمة . ولو كان من الادواء الطبيعية لهزمهُ العلم على اهون سبيل

ذلك داء اخرجته أوروبا من خزينة مخترعاتها فجنت به على نفسها والعالم اعظم جناية فقد أضرت به نساء بلادها وغيرهنَّ ممن أُصبنَ به . ولقد تعجبون اشدَّ العجب اذا قلت لكم انه لاداء ولامرض بل هو بعض الازياء من ثياب النساء اخترعته لهنَّ اوروبا فما لبث أن سرى حبهُ في قلوبهنَّ وولعنَ به حتى اخذ لونهنَّ في الاصفرار وجسمهنَّ في الاضمحلال (اعجاب واستحسان)

ذلكم المشدُّ أيها السادة ويسميه الافرنج كورسيه (Corset) « جلبة واستغراب »

---

(١) جرجس باسيل عطا الله

نعم هو هو تلك الاداة التي تتخذها النساء لشد اوساطهنّ وضغطها حتى تدقّ خصورهنّ وتمشق قاماتهنّ ولو أورثهنّ ذلك سقم الاجسام وقصر الاعمار وهي آفة من آفات التمدن الحديث نعوذ بالله منها[١]

فمن يرى القامة الهيفاء مائلة يحسبها غصن بانه . ويبصر الجسم اللطيف يجرحه النسيم ويدمي لمس الحرير بنانه . ويختال لديه القدّ الرشيق تكاد تجرح عطفيهِ الثياب . ويخطر أمامهُ القوام المترف تكاد تؤثر في اعطافه ثنايا الجلباب . ولا يأسف على ذلك الخصر النحيل تضغطه عوامل الصنعة ومزاعم التحسين . وذلك الجسم الناعم تشدُّهُ ايدي القسوة فتضيع ما فيه من اللطافة واللين . وهو يعلم ان ربتهُ تؤثر فيها كف اللامس العاشق . كما تؤثر في وجناتها لحظات المغرم الوامق . بل أيّة عين ترى الحسناء تشد باطراف مشدها القاسي تلك القامة الهيفاء . وتبصر ذلك العطف الناحل تنضمُّ اعضاؤه المترفة تحت مشد الحسان من النساء . طمعاً في زخرف باطل لا يزيد القوام حسناً كما يزيده من السقم والداء . ولا تحزن على تلك الجسوم بما يصيبها من انواع الاعتلال . وتدمع لتلك الاعطاف الناحلة ان تزيدها رباتها انتحالاً على انتحال . وما برح المرء عدوّ نفسه وما زال الحسن مجلبة الوبال[٢] . وأي وبال اعظم من ان تجلب السيدة العلة لنفسها وتشوه بيدها جسمها وتعطل أهم اعضائها وتصبح حملاً ثقيلاً على كاهل الهيئة الاجتماعية وتسوق نفسها الى حتفها في عنفوان شبابها باستعمالها المشد « استحسان » مهلاً ايتها السيدات الفاضلات لا ازيدكنّ علماً بأن التبرج صورة

---

(١) الهلال « مجلة » (٢) المرحوم الشيخ نجيب الحداد

زائلة والصحة جوهرة ثمينة اذا فقدت قديستحيل استرجاعها . فهلاّ اقلعتنّ عن هذه الآفة الوخيمة واكتفيتنّ بما منحتكنّ الطبيعة من الجمال ؟ هل ضرّ ملكات الجمال اللواتي نبغنَ قبل شيوع المشدّ انهنّ لم يلبسنهُ وهل قلّلَ ذلك شيئاً من منزلتهنّ ؟ ؟ قد يعتذر بعض السيدات بأنهنّ انما يستخدمن المشدّ لمجرد التدفئة أو شدّ الأوساط وربما قلن انه عادة قديمة اتخذها اليونان والرومان منذ قرون . اقول نعم قد استعمله في القدم كثير من النساء والرجال ولكنه لم يكن بالحقيقة الا منطقة عريضة من نسيج يشدون بها اوساطهم اذا ركبوا الافراس في ساحة السباق صوناً للجزع من كثرة الاهتزاز . وكذلك يفعل الآن بعض اهل البادية اذا ركبوا فرساً جموحاً او هجيناً سريعاً . وقد يتخذه بعضهم لشدّ اوساط الاطفال في اوائل ايامهم خوفاً عليهم من ليّ او صدع او كسر ولكن ذلك شيء والمشد الأروباوي الذي نحن بصدده شيء آخر [1] فهو من حديد كالدرع الثقيل يليق ان يرتديه للفارس الكميّ لا قدّ المرأة الهيفاء التي خصها الله بلين القوام فجعلتهُ صلباً قاسياً . وميزها بلين المعاطف ورقة الخصر فجعلته بيدها جامداً جاسياً [2] عدا ما قررته علماء الفنون الجميلة من ان المشدّ يشوّه شكل الصدور ويغير هيئة الثديين [3] فيذهب بالمحاسن الطبيعية ويطفئ انوار الجمال الاصلية ولا يزيد المرأة الا قبحاً وتشويهاً فان القوام اذا لم يزينه جمال الطبيعة لم تفدهُ صنعة الجمال . والخصر الناحل في غنى عن هذا المشد الذي لا يفيد سواه في حال . ورحم الله شاعر زمانه الشيخ اليازجي حيث قال :

---

(١) الهلال «مجلة» (٢) المرحوم الشيخ نجيب الحداد (٣) الهلال «مجلة»

ان المليحة من كانت محاسنها من صنعة الله لا من صنعة البشر

وما اتى فريد على هذا الحد من كلامه حتى صفق له الحضور طويلاً وهرجوا فيما بينهم علامة التعجب والاعجاب . فسكت قليلاً حتى انصت الجمع فقال :

الفصل السادس عشر

« مضار المشد تشريحياً »

هذه ايها السادة مضار المشد الادبية اما مضاره الطبية فاكثر من ذلك وأوخم عاقبة فان السيدة لتلبس مشدها وهي تنظر الى المرآة معجبة بنفسها حين ترى الخصر قد نحل واستدق ولا تبالي بما قد ضاق من صدرها وانهصر من احشائها او تلبد من امعائها وقد تفعل ذلك قبل اوان الطعام لئلا يحول امتلاء معدتها بينها وبين ما تريد من تصغير خصرها رغبة في الجمال على زعمها ثم تتناول الغداء او العشاء وقد يلذ لها التأنق فتكثر من الالوان متجاهلة ما تقاسيه من ثقل الطعام وما يعقبه من عسر الهضم فلا تلبث ان تشعر بالتخم المعدية والقراقر البطنية على ان ذلك مغتفر عندها بجانب ما تؤانسه من دقة الخصر واعتدال القوام وبروز الاعضاء

ولبيان مضار المشد تشريحياً اقول لكم ان الاحشاء في الانسان تقسم الى قسمين . احشاء صدرية موضوعة في التجويف الصدري . واحشاء بطنية موضوعة في التجويف البطني . واهم الاحشاء الصدرية القلب

والرئتان . واهم الاحشاء البطنية المعدة والامعاء والكبد . ولكل من هذه الاعضاء عمل خاص به لا يتم الا اذا كان ذلك العضو مستقراً في مكانه مطلق الحرية في حركاته فاذا ضغط ضعف عمله وقد يبطل . فضغط الصدر يضيقه فتنحصر الرئتان ويضعف التنفس ويقل تأكسد الدم فيفسد ويتلبك عمل القلب . والضغط على الاحشاء البطنية يعوق حركات المعدة والامعاء ويعطل عمل الكبد فيختل الهضم وتسوء التغذية . وكل ذلك مما يعطل عمل الاحشاء البطنية ويضعف الاعمال الحيوية وما عاقبة ذلك الا المرض والسقم والمشد اكبر مساعد على ذلك (استحسان شديد) ولتقريب فهم الحالة من اذهانكم اريكم هذه الصورة فانظروا اليها . ثم مد يده الى الصورة المعلقة خلفه على الحائط فرفع الستار عنها فتحولت

الشكل الاول الشكل الثاني

نقلاً عن مجلة الهلال

اليها انظار الجمع فقال كلكم يرى في الشكل امامه صورة الجزع في حالتيه

مع المشد وبدونه . فالشكل الاول صورته بدون المشد تظهر فيه الاحشاء البطنية بمواقعها الطبيعية ففي القسم العلوي منه وهو التجويف الصدري الرئتان والقلب وفي القسم السفلي وهو التجويف البطني الكبد والمعدة والامعاء فترى الرئتين مالئتين التجويف الصدري والقلب بينهما في سعة وترى الكبد والمعدة شاغلتين مكان الخصر وعليهما أهم اعمال الهضم وتحتهما الامعاء وكل من هذه الاحشاء في مقره الطبيعي يعمل عمله بنشاط وراحة . فالرئتان تعملان عمل التنفس بالتمدد والانقباض وذلك لا يتم الا اذا كان الجدار الصدري مطلقاً يتحرك بسهولة فاذا ضغط عيق التنفس فتسرع الدورة ويقل التأكسد فيفسد الدم كما تقدم . ومثل ذلك الكبد فبالضغط يضعف عملها فيتلبك الهضم وتسوء التغذية . فاذا تأملتم في الشكل الثاني رأيتم الضغط قد ضيق التجويف الصدري وقلّل حجم الرئتين حتى ضغطت على القلب . وترون الخصر قد ضاق حتى لم يسع غير الكبد وقد ذهب بالمعدة الى اسفل الاحشاء البطنية . فضلاً عما لحق بالامعاء من الضرر (١)

ولم يأت فريد الى هذا الحد من كلامه حتى تهامس الحضور اولاً ثم علت ضجة الدهشة بينهم وكثر التفات بعضهم الى بعض علامة الاستغراب فمن قائل اعوذ بالله من المشد . ومن قائل لاجزى الله مخترعه خيراً الى غير ذلك من عبارات التأفف والحقد والاستياء لما اثر فيهم من كلام الخطيب

ولكن فريداً تحرك في موقفه استعداداً للكلام فسكت الجمع فقال

---

(١) الهلال

مستأنفاً: واي ضرر ايها السادة اكثر من ان تفقد الاعضاء اشكالها الطبيعية فلقد أبان تشريح جثث المغرمات بالمشد ان الكبد قد تشوه شكلها وارتسمت صور الاضلاع عليها كأنها غرست فيها وان غدداً عديدة نائية قد أخذت تنمو في الاحشاء الصدرية وتحت الاباط [١] هذا عدا ما ينتجه من الامراض الوبيلة كالسل والدسبيسيا بانواعها وسائر امراض القلب والكبد وغيرهما مما لايقع تحت الحصر « جلبة شديدة »

هذا بعض من كل مما ينتج عن تلك الجناية الفظيعة التي جنتها أوربا على نفسها والعالم باستنباطها هذا الزي من لبس النساء ولقد احست بضرره الفاحش وعاقبته الوخيمة فقام عقلاؤها يقلبون له ظهر المجن ويحثون النساء على تركه وينذرونهن بسوء العاقبة اذا اصررن على استعماله . واشتغلت جرائدهم حيناً من الدهر ولا تزال تشتغل بنشر المقالات الدالة على كره الافرنج انفسهم له حتى لقد نشر بعضهم في احدى المجلات الباريزية مقالة يطلب فيها من الحكومة الفرنساوية ان تضع ضريبة على كل امرأة تشد المشد . واحبت جريدة الغولوا ان تعرف اراء الناس في هذا الامر فنشرت شيئاً عن ذلك المعنى فكان من اجوبة احد الباريزيين ان قال « اخبركم اني اكره استعمال المشد كل الكره لانه مضر بالجسم ومعطل للجمال ينقص محاسن الحسناء ولا يزيد جمال سواها » [٢]

وطلب احدهم ان تتألف جمعية تحرم على اعضائها الاقتران بمن تستعمل المشد من النساء . واحصى احد الاطباء الاوروبيين حوادث الاجهاض

---

(١) سليم زاكي كوهين (٢) المرحوم الشيخ نجيب الحداد

فراعته كثرتها فدأب على معرفة السبب فوجد ان جلّها مسبب عن استعمال صاحباته للمشد « دهشة عظيمة »

وافاضت جرائدنا العربية على اختلافها في هذا الموضوع ونقلت اقوال الافرنج فيه واراءها هي عنه ومنها ما جاء في مجلة طبيب العائلة الغراء في الجزء الرابع من السنة الحادية عشرة وهو هذا بنصه الشائق :

« لم تخلُ سنة من سني طبيب العائلة الماضية من مقالة او نبذة او كلمة عن اضرار لبس المشد للنساء ولكن يظهر انه كلما اكثر المرشد الصحي من تبيان اضرار هذه الآلة الضاغطة زاد النساء في لبسه اتباعاً للتقليد والمودة : فكانه يكتب لأناس لا ينظرون ولا يسمعون او يكتب على صفحات الماء او كأنه يعظ في الصحراء على قول المثل الفرنساوي . ولكن على المرشد الصحي فرض يجب ان يؤديه فقد خصص نفسه لارشاد الجمهور الى ما فيه نفعهم فهو يواصل السير في طريق الارشاد ويترك القراء مخيرين في العمل بنصائحه واتباع ارشاداته او عدم الاهتمام بها ولذلك اردنا ان نذكر في هذه السنة ايضاً كلمة عن اضرار المشد (وهي ليست بالاخيرة) لعلّها تؤثر بعض التأثير في سيداتنا السيدات اذ ربما كنّ في هذه الايام احدّ بصراً او سمعاً من ذي قبل

يشكو اغلب النساء الدسبيسيا او عسر الهضم مع انهنّ لا يدخنّ ولا يكثرنَ من شرب المسكرات كما هو الحال في الرجال فمن اين تأتيهنّ هذه الدسبيسيا ؟ — من المشد في غالب الاحيان لان هذه الاداة تعوق التنفس وتضايق الوظائف الهضمية وبنوع خاص وظائف الكبد والمعدة والامعاء والكلى

كبد تغير شكله بضغط الكورسيه عليه

ففيما يتعلق بالكبد نكتفي بوضع الرسم المندرج هنا تحت اعين القراء فهو يدل على التغييرات التي تحصل في شكل الكبد من ضغط المشد عليه . اما الرسم المدلول عليه بخطوط فهو يبين الشكل الطبيعي للكبد ومن مقارنة الرسمين يتضح للناظر مقدار الضرر الذي يحدثه المشد في الكبد من حيث تأخير الدورة الدموية فيه ومنعه عن تأدية وظيفته . اما المعدة فالمشد يختقها من وسطها بضغطه عليها ويحدث فيها تمدداً ويقلل افراز عصيرها الهضمي . واذا نظرنا الى الامعاء نجد ان المشد يضغط على المستقيم فينتج من ذلك امساك يشكو منه اغلب النساء وتتولد منه اضطرابات في اعضاء الرحم

وفضلاً عن ذلك فان المشد يسبب انتقال الكلية من مكانها مما يترتب عليه ظواهر دسبيسية شديدة . وقد قال ليندر ان الكلية المنتقلة تشاهد بمعدل ١٧ في المائة في النساء اللواتي يلبسن المشد . وقال ماتيو ان هذا المعدل هو ٢٨ في المائة . ومن جهة اخرى اتضح من الاحصاآت انه بين ٤٨ امرأة مصابة بانتقال الكلية ٣٣ كنّ مصابات بالدسبيسيا مع انه بين ١٧٤ امرأة غير مصابة بانتقال الكلية ٤٠ فقط كنّ مصابات بالدسبيسيا

هذه اضرار المشد الاكثر اهمية اردنا ذكرها هنا ارشاداً للسيدات

فلعلهنَّ يجتنبنها او على الاقل يستعملن مشداً يكون قليل الضغط على اهم وظائف الجسم — انتهى كلام مجلة طبيب العائلة »

نعم ولا تكفي عدة ايام لشرح اضرار هذه الآفة الوخيمة ولكن اختم كلامي الآن راجياً ان يكون له الوقع الحسن في نفوسكم فتتنبهوا الى مضار هذا النوع من ملابس النساء وتشددوا النكير على رباته فلا تسمحوا بدخوله في منازلكم والوصول الى نسائكم لئلا ينفث بينهنَّ سمومه القتالة ويحرمهنَّ الراحة ويسوقهنَّ الى الشقاء الدائم والمرض الطويل . واظن كلاً منكم الآن قد هاج صدره غضباً على هذه الآلة الجهنمية بعد ان سمع بعض اضرارها الادبية والطبية وعلم كره الافرنج انفسهم لها وآراءهم فيها وهم الذين استنبطوها وجنوا على انفسهم وعلينا بايجادها اعظم جناية . ولكنهم كما سمعتم قاموا الآن في شدة مقاومتهم لها يبررون خطأهم الذي ارتكبوه باختراعها اسأل الله ان يقينا شر ازيائهم الحديثة فكم من مرض وخيم تحت حسنها الظاهر وجمالها الخارجي

ثم نزل فريد عن الدرج فصفق الجمع تصفيقاً شديداً دوت له انحاء الحديقة ورددت صداه الحمراء باجمعها . . ونادى ابراهيم الخدم فاحضروا كؤوس الحلوى والمرطبات فشرب القوم وقاموا يشكرون فريداً على اهتمامه الجزيل وخدمته الشريفة وغيرته على بنات وطنه . وانصرفوا يرددون اقواله الحكمية ونصائحه الذهبية وما منهم الا من أخذت بلبه واستحوذت على قلبه

وخرج صادق فشيعه فريد الى الباب وودعه هناك ووعده بالذهاب

الى منزله في الصباح ليعود ابنتهِ فشكره وذهب . وابراهيم يلاحظهما من بعيد وقد تحقق تفاني صاحبه في حب ابنة صادق فكان لاخلاصه في صحبته يسأل الله ان يتمم له رغائبه ويبلغه امانيه . وبعد قليل ودعه الآخر وانصرف الى منزله على امل اللقاء قبل ظهر الغد

الفصل السابع عشر

صحة النساء في تركهن الستر

ودخل فريد بعد العشاء الى غرفة نومه حيث سهر قسماً كبيراً من الليل في التفكير ثم نام واستيقظ عند بزوغ الفجر فاستعد للذهاب الى محل اشغاله وفي عزمه ان يتمم بعد ذلك كعبة أماله ومحط رغائبه . فلبث في المستشفى اولاً الى الساعة العاشرة ورجع الى منزله فوجد عربة ابراهيم في انتظاره لتنقله الى المدينة فركبها الى بيت صادق حيث وجده متأهباً لاستقباله فحياه واقام معه في غرفة الجلوس ريثما اخبر الخادمُ أهل المنزل بقدومه . فكانت ساعة شديدة على قلب الفتاة . ولنسمها لك ايها المطالع وندع عنك الرمز والتلميح . فاسمها « وحيدة » كما انها وحيدة في الجمال والظرف واللطف وكرم الاخلاق فلما سمعت وحيدة بقدوم فريد اهتز قلبها من عاملين عامل الطبيعة الذي اعتاد ان يمد يده لقلب المحب ساعة رؤية حبيبه او ذكر اسمه . وعامل البغتة والخوف من ان يفتضح سر فؤادها المكنون امام والدها . ولانقول من عامل السرور بلقائه لانها في هذه الحالة اقرب الى الفزع والفرق منها الى الفرح والجذل . فشدّت عزمها

وقوت جنانها وقامت الى غرفتها تتشح بوشاحها استعداداً لمقابلة الطبيب كما هو في عين اهلها والحبيب كما هو في عين قلبها . فما هي الا هنيهة حتى جاء والدها يستقدمها فخرجت معه والجد ظاهر عليها والقوة بادية في مشيتها . وما هي الا لحظة حتى وقفت على باب الغرفة حيث فريد في انتظارها . وهناك سطا عليها سلطان الهوى فسلبها القوة ومد عامل الطبيعة يده الى قلبها. واسدل الاضطراب على وجهها نقابه الاصفر . ولكنها بعد قليل تماسكت وعادت الى الجلد والتحذر فخطت عتبة الباب وهلّت في فضاء الغرفة فسطع بياضاً واكتسى وجه فريد بذلك احمراراً ووقع بصره على الارض بغير ارادته وانخفض رأسهُ غير انه اسرع فتغلب على عامل الطبيعة وتشدد ورفع جفنيه وشخص في وجه ذاك الملاك الذي هبط عليه يوحي الى قلبه آيات الحب ويلقنه لواعج الغرام

ولما وقع عليها بصره ورأى ذاك الجمال القديم وتلك المحاسن أحسّ بهزّة شديدة في اعضائه ثم اشتدت مفاصله وتشنجت اعصابه فلم يشعر بعدها الاّ وهو واقف على قدميه وقد حاول عبثاً ان يثبت في مجلسه

فلما رأى من نفسه ذلك عمد الى رشاده ورجع الى صوابه واراد مغالطة صادق فالتفت اليه وحرّك لسانه برنة الجد قائلاً

ألا ترى تغييراً بيّناً وبوناً شاسعاً بين الماضي والحال ؟

قال صادق لاشك في ذلك وما هو الا فضلك العميم وحذقك العظيم

قال عفواً . وانما قصدت الفات فكرك الى اقوالي في المجمع . وهذا حال ابنتك مصداق لها

قال أنا اول مصدق . ولقد عرفت قصدك من الدعوة ساعة وصول البطاقة وكان المساعد لي على معرفتي سبب ما كنت اراه من تحسن صحتها يوماً بعد يوم

قال فريد لا جدال في ان المشد يفعل بالاجسام ما لا تفعله الاسقام. ولا سقام الا منه . والتفت الى وحيدة وقال وهو يشجع نفسه ويحاذر عثرة لسانه :

لا شك في زوال ما كنت تشعرين به من آلام القلب والكبد . وكاد يشرق بريقه من الاضطراب امام حاكمة قلبه ومالكة لبه فسكت

فلمحت وحيدة ما به وما كادت تهنىء نفسها حتى أحست بالعدوى منه وشعرت بسرعة خفقان قلبها ورعشة خفيفة في جسمها لحظها منها فريد فصار كل منهما يهنىء نفسه على مبادلته الهوى ومشاركته في الهيام

ولكن وحيدة رأت سكوت فريد قد طال أمده فخافت ظهور حاله لوالدها . فرأت ان تجيبه على سؤاله لتنتشله من هوّة التفكير فقالت :

لقد زال كل ألم والحمد لله

فانتفض جسم فريد انتفاضاً اخرجه من غيابة التأمل فحول نظره الى صادق وابتسم علامه نجاحه في المعالجة فأظهر له صادق ثناياه جواباً على ابتسامه ثم مشى نحوهما ووقف بجانبهما وقال

انها اليوم لا تشعر بشيء من الآلام ولا تشتكي عسر الهضم . وصحتها بوجه الاجمال جيدة

قال فريد يجب ان يكون ذلك . كيف لا وهي لم تعد تلبس المشد

وما كان المرض الا منه . وحوّل حديثه اليها قائلاً : عساكِ ان لا ترجعي اليه بعد ان تحققتِ منه الضرر

قالت قد القيته في غيابة الصندوق ولن أمد اليه يدي

قال تحسنين صنعاً . والآن يلزمك الاعتدال في كل اعمالك حتى يتم الشفاء فلا تخلفي مواقيت الاكل ولا تكثري من انواع الاطعمة ولا تستعملي ما يسبب عسر الهضم كالنوم قبل تمام عمل المعدة اي قبل ساعتين ولا تدخلي طعاماً على طعام وتتعرضي للبرد . وعليكِ ان تخرجي الى الخلوات وتتريضي في الفلوات

والتفت الى صادق وقال متمماً كلامه : فان خير علاج يصفه الطبيب في اكثر الامراض التعرض للشمس واستنشاق هواء الخلاء

قال صادق حقيقة انه خير دواء شافٍ

وعلى ذلك استأذن فريد في الانصراف وخرج يكرر وصيته بالخروج الى الخلاء كل يوم وكان بوده لو يقيم يومهُ لولا خوفه من ظهور حاله

وشيعه صادق الى العربة وودعه وعاد معجباً بمروءته

الفصل الثامن عشر

أيأخذ فريد أجر المعالجة ؟

ركب فريد المركبة وانطلقت به تؤم منزل ابراهيم وهو يكاد ينزل عنها ويسعى على قدميه بسرعة النسيم ليزف بشرى الشفاء لصديقه فيشاركه في ابتهاجه . وما وصلت العربة حتى هبط الى الارض وطار باجنحة

السرور الى غرفة الجلوس حيث ابراهيم يتنسم الاخبار . فاراد فريد ان لا يبدأه بالبشارة ليرى ما يفعله من الكدر عليه ومقاسمته لاحزانه فدخل صامتاً وجلس . ولكن مخايل الحبور كانت جلية على وجهه فلم تغب عن ابراهيم فعلم مغالطة صاحبه فقال وهو يبتسم ابتسامة السرور :

ما لي اراك صامتاً ناطقاً ؟

فقال فريد : وكيف ذلك ؟

قال ارى لسانك ينكر ما ينمّ عليه وجهك . فانه طافح بعلامات البشر

وحينئذٍ لم يستطع فريد حبس نفسه من الضحك فقهقه عالياً وقال :

سقيا لك من اخ صادق . ومال عليه يحدثه بشفائها التام ويخبره بارتياحه وابتهاجه ثم اخذ يسرد عليه ما دار بينه وبين صادق من الحديث

فلما اتى عليه قام ابراهيم فعانقه وهو يقول : الآن سري عني

فقال له فريد لا عدمتك من صديق صادق وخل وفيّ . فهكذا الغيرة على الاصدقاء وهكذا الاهتمام بالاخوان . ثم اخذا يتبادلان عبارات الاستبشار والاغتباط حتى جاء موعد الغداء فتغديا ورجعا الى مكانهما حتى دقت الساعة فقام فريد متأهباً للذهاب الى منزله فودع صديقهُ على ان ينتظره في الحمراء قبل الغروب

وعلى ذلك اخذ يترقب الموعد حتى جاء وما جاء ابراهيم فاخذ ينتظر حضوره بغير جدوى حتى هجم الظلام ولم يهل نور عربته فاشتغل بال فريد قليلاً لعدم توعده من صديقهِ اخلاف الوعد وهمّ ان يرسل احد اتباعهِ ليأتيهِ بالخبر ولكنهُ رأى ان يذهب بنفسهِ ويقضي سهرته معهُ في المدينة

فمشى الى الباب . وما كاد يتجاوز عتبتهُ حتى اوقفهُ ابراهيم واخذ بذراعهِ ومشى به الى الداخل وهو يتبسم في سكوت . فلم يصبر فريد على مرارة الانتظار فحول وجههُ اليه وقال :

لم يكن العهد بك ان تتأخر . فلأحفظنَّ حقي ضدَّك او لتأتيني بعذر مقبول . .

قال قد أُوتيتَ سؤلك يا صاح . فادخل بنا الغرفة

فدخلا وفريد على مرجل الانتظار . وما اطمأنت بهما ارض الغرفة حتى مال الى ابراهيم يتحسس منه الخبر فقال له صاحبه

اني بعد قيامك صعدت الى منزلي حتى اذا حان حين الحضور اليك نزلت فوجدت بطاقة من صادق يسألني انتظاره في الساعة الخامسة فصدعت بالامر . وهل كان في الامكان مخالفته ؟ ؟

فضحك فريد لما علم قصد ابراهيم من سؤاله الاخير ثم قال له . وقد جاء طبعاً . قال نعم .

قال لا اظنك تخفي عن اخيك ما دار بينكما

قال كيف وهو لا يتعلق بغيرك .

قال فريد وقد دهش جداً . بي ؟ ؟

قال نعم بك وبكريمته .

فنفد صبر فريد ولم يعد في امكانه الانتظار فقال منزعجاً

كيف ذلك ؟ ؟ بالله لا تشغلني بالغازك وتشتت فكري برموزك . وما احسنك لو تترك المزاح في مثل هذا الحال وتسرد الحديث بلا محاورة ولا محاولة !

قال ابراهيم يعجبني منك اهتمامك بالامر وتهافتك على معرفة الخبر بسرعة البرق فتولد الاسئلة والاجوبة ولو تتركني ونفسي لكنت تجدني اسرد عليك الخبر اجمعه ولا احملك ثقل الانتظار

فسكت فريد علامة الاقرار بخطائه والتفت اليه اشارة التفرغ لسماع حديثه فقال ابراهيم ولما جاءت الساعة الخامسة جاء معها صادق فجلس حتى شربنا القهوة وأخذ يستشيرني في تقديم اجرة العيادة لك فوافقته وحددت له صباح الغد ليحضر معي اليك لتقديم الدراهم

فانتفض فريد في مجلسه وظهرت علامات البغتة عليه ورفع صوته بالكلام مع ابراهيم والاضطراب يلجلج لسانه وهو يقول

عجباً ! ! كيف وافقته ؟ ثم سكت وهدأ من روعه وأعاد الكلام قائلاً حقاً ان لكل عالم هفوة . ولكن . ألا تعلم يا صاح ان رابع المستحيلات قبول فريد أجر العيادة من صادق ؟ فما كان اخلقك ان تجيبه عني وتكفيني شدة وطايا مقابلته !

قال ابراهيم وهو يكاد يغص بريقه من شدة الضحك . مساكين أهل العشق ما اعظم خوفهم مما يمس بكرامتهم لدى المعشوق .

ففهم فريد في الحال قصد صاحبه من كلامه الاول فأطرق صامتاً . واستمر ابراهيم في حديثه قائلا

ألم أقل لك انك لن تستطيع حبس نفسك عن التهافت على معرفة الخبر بسرعة البرق . ولكنك معذور فهي عادة المحبين وسنة العشاق .

أتظنني أخطئ في معرفة ضميرك ؟ فقد رددت صادقاً معتقداً استحالة

قبولك الدراهم وحمامي ما لا اقدر على تقديمه لك من آيات الشكر لكثرتها ولكنه حاضر غداً ليقوم بواجب عرض النقود عليك

فقال فريد لصديقه وهو يعجب من دهائه في المزاح . الآن قمت بالواجب ويا ليت صادقاً كفانا مؤونة الرفض . ولكني سأقوى على عواطفي ما استطعت . أيظن صادق ان فريداً يأخذ اجرة المعالجة ؟ ولكن العذر له فهو غير عالم بما في القلوب .

وهنا حضر العشاء فتناولاه وقطعا جزءاً من الليل ثم افترقا على عزم الالتقاء في الصباح حيث ينتظره فريد في الحمراء الى ان يحضر مع صادق

الفصل التاسع عشر

« هول العناب »

صعد فريد الى غرفته واستعد للنوم فانطرح على سريره ثم اراد ان يطوف بفكره قبل النوم حول كعبة حبه « ووحيدة » قلبه . فاطلق له العنان فجمح الى المدينة وما كاد يصل حتى اجفل ورجع مسرعاً واستوى قاعداً

ذلك انه اخذ يفتكر بحبيبته فتذكر وصيتهُ لها بالخروج للنزهة وظن انها جاءت للرياضة في الحمراء وهو لم يذهب لمقابلتها فتكدر كثيراً وقطع من عام الليل اكثر من شهرين في التفكير ومحاربة الهواجس الى ان غلبهُ قائد الجفون فأسره وألقاه في غيابة النعاس

ولما جاء الصباح تشفع فيه لدى سلطان النوم فأطلقهُ فانطلق يصلح

من شأنه حتى اذا فرغ ذهب الى المستشفى وقضى اشغاله ثم دخل غرفته الخصوصية هناك فاستأذنت عليه تلك القابلة رسوله الامين الى حبيبه العزيز فأذن بدخولها ودخلت تبتسم فاستبشر وانشرح صدره وهمَّ بابتدارها بالكلام فلمح في يدها تحت ردائها ورقة بيضاء فسكت سروراً وانتظر ان تناوله اياها وقد دار في خلده انها كتاب من الحبيب . وما ادراك بقلوب المحبين انها نوع من اشعة رونتجن ترى ما لا يراه الناظرون . او من آلات مركوني تتناجى بالمقصود من بعيد

وصدق ظن فريد فناولته القابلة الكتاب فأخذه بلهفة الصادي وتناوله بيد الجذل ثم فتحهُ بأنامل الفرح والفرق وقرأ :

فريد المحاسن

أكتب اليك وقد شاخ الليل واشتعل رأس الظلام شيباً . واقلقني الشوق اليك فلم يرح فؤادي . ولم يتركني أهنأ برقادي . وكيف ارقد والرقاد على مثلي حرام . او انام والعاشق لا ينام . كأني بك الآن تتعجب . نعم يحق لك العجب . فأنا التي كانت بالامس تستودعك لتختفي بين الجدران . وتخضب بدم جفونها على بعادك البنان . تعجب كما تشاء . أنا القتيلة ولا حياء والمحبة ولا خفاء

فريد . وما احلى هذا الاسم الكريم ! تركتني وقد شددت الوصية على سيدي الوالد بضرورة خروجي الى الخلاء . فظننت ذلك التشديد تسهيلاً في اسباب اجتماعنا وقد شعر قلبي بذلك ولا اعلم لماذا ؟ ربما يكون لميله اليك . وتفانيه في حبك نعم . ولكن واأسفاه خاب الظن

وانعكس الامل . جئت الى الحمراء في كل مكان . وكذلك على جسر مدرسة الامريكان . وكنت آمر سائق العربة بخفة المسير . ولكن واخيبتاه قد حاولت عبثاً ان اراك . فلعلك سهوت ولهوت . ما أمرّ العيش لو يكون الامر كما توهمت

والآن تكرم بقبول تحياتي القلبية من الفؤاد العليل في فراش صدره يرنو اليك بعيني الرجاء ان تتلطف في جوابك اليه لئلا يموت كمداً والسلام

« وحيدة »

لم يفق فريد من ذهوله الذي وقع فيه ساعةَ اطلاعه على ما في الخطاب من التقريع اللطيف الشديد بل ظل ذاهلاً يقرأ ويعيد ثم يبتدئ وينتهي اكثر من اربع مرات . وكأن القابلة لحظت عليه الارتباك فارادت تنبيهه دون ان يفهم ولذلك تحولت الى الباب تظهر الانصراف ومشت بقوة ايقظت فريداً من غفلته فناداها من خلفها ان لا تخرجي قد قرأت الخطاب واريد تزويدك برده . فوقفت

وقبض هو على يراعه واخرج من طاولته قرطاساً جميلاً أعده للحبيبة وخصه بمراسلتها فكتب والقلم يكاد يسقط من يده المرتجفة . واراد اطالة التسطير لولا ان ازدحمت عليه الافكار وتراكمت الهواجس فمنعته عن ارادته فكتب القليل المفيد وطوى الكتاب ودسه في ظرفه وناوله للقابلة واوصاها بالاحتياط في توصيله فاومأت اليه ان لا يخاف ولا يفتكر وخرجت وخرج بعدها الى منزله يعرض خطاب الحبيبة على نظره ويكرر عبارته في فكره فكان منظراً غريباً . يحتد ساعة ويهدأ أخرى ويحمر وجهه آونة ويصفر

من الفرَق برهة حتى وصل المنزل وهو في شدة وكرب عظيمين مضطرب الفكر مبلبل البال لا يكاد يقر له قرار . ولم يكن ذلك منه عن قلة عزم او ضعف رأي بل أسفاً على فوات الامس دون التمتع بمحيا الحبيبة والتلذذ بسماع نغمات صوتها المحبوب وخوفاً من ان تتهمه التي لا يحتمل اتهامها له بالتقصير او كما قالت في خطابها بالسلوان واللهو وهما اعظم جناية لا تغتفر في شرع الغرام

و بعد اللتيا والتي سكن جاشه وابرم رأيه على مقابلتها في الميقات الذي حدده لها في جوابه المرسل اليها مع القابلة

الفصل العشرون

« كتاب كريم »

قبل الهاجرة دعا الخادم سيده فريداً للنزول وكان لا يزال في غرفته يكرر قراءة خطاب وحيدته فنزل واذا هو بابراهيم وصادق في قاعة الانتظار فرحب بهما واقبل على صادق يحييه ويبدي له عباراته الودية اللطيفة حتى جعله سجين لطفه وحبيس ظرفه . ولما انتهم القهوة وشربوها رأى ان يبتدره بالكلام في موضوع اجر العيادة لكي يوصد الباب امامهُ ولا يلجئهُ لمفاتحته فقال :

أخبرني صديقنا الفاضل ابراهيم بما تكلمتما به عن مسألة اجر المعالجة ولقد احسن حفظهُ الله الاجابة عني لما يعلمه من اخلاصي لك وحسن نيتي من جهتك وقد ساءني كثيراً كلامك في هذا الموضوع وكان الامل من

إخائك عدم التعرض لذلك والدخول فيه فلا تسألني بعدها فتحملني مرارة الاجابة في موضوع لم يكن بانتظاري ان نتكلم فيه

فقال صادق بما انك قد سورتني بسور لا اتعداه وألجأتني الى عدم الكلام في الموضوع فاني اتجنبهُ اجابة لطلبك وأسديك شكري الجميل . ثم اخذ يسرد آيات الشكر والثناء على فريد وابراهيم حتى اعجزهما عن الرد بالثناء عليه

وانتهز فريد هذه الفرصة فأمر بتجهيز الغداء ليحجز صادقاً ولم تأتِ الظهيرة حتى أُتي الطعام ودُعيَ صادق له فلم يرَ بداً من الاكل لعدم لياقة الاعتذار وقام ابراهيم فأكلوا كفايتهم واستراحوا قليلاً ثم استأذن صادق في الانصراف وصحبه ابراهيم ليوصله في عربته وودعهما فريد حتى الباب وعاد يتجهز للذهاب الى ذاك المكان المقدس مكان اللقاء والاجتماع وكانت القابلة قد اوصلت الجواب الى وحيدة فأخذته بلهفة السجين الذي يتناول امر الافراج عنه وكانت والدتها في قاعتها فاغتنمت هذه الفرصة وأمرت القابلة ان تدخل اليها وذهبت هي الى غرفتها وأوصدت الباب وراءها وأخرجت الكتاب من طيات ثوبها وما كادت تفعل ذلك لشدة اضطرابها وقوة قبض عامل الطبيعة على قلبها . ووضعت الكتاب امامها والخوف بادٍ على وجهها وقد علاها الاصفرار خوفاً من ان يكون في الرد ما يدل على الترك والسلوان

ولكنها خافت ان يطول بها المقام وتدعوها والدتها قبل ان تطلع على ما في كتاب فريد فمدت اليه يدها المرتعشة والقت عليه بصرها الزائغ

فبصرت بشخص الحبيب بين السطور راكعاً امام هيكل جمالها البديع معترفاً بسلطانها على قلبه وامتلاكها لفؤاده مقدماً روحه الزكية قرباناً لحبها على مذبح الغرام فقرأت في الجوب ما ابهجها وجلا كربتها وتمثلت لها روحها وفؤادها وقلبها ونفسها تهنئها بالفوز ورأت الجوارح تلبي دعوة الداعي المحبوب للحضور في محل الاجتماع الذي تعرفه وألفت الذهاب اليه . ذاك المكان على شاطىء النيل في الجهة القبلية من الحمراء حيث لا من يدب فيه اويذهب اليه . فأطاعت وما ادارنا انه لو لم يرسل فريد خطابه لما كانت تتأخر طرفة عين عن الخروج في عربتها تدور بنظرها في محلات النزهة تبحث عن لباب عقلها وحبة قلبها كما فعلت بالامس

الفصل الحادي والعشرون

« العهد والميثاق »

ولما حل الميعاد قامت وحيدة وقد اعدت العربة لركوبها فخرجت الى الحمراء ترشد السائق الى وجهتها حتى قاربت المكان فأمرته بالوقوف عن السير فجذب عنان الخيل ونزل عن مجلسه وفتح باب المركبة فبرزت منها وحيدة تترنح اعطافها دلالاً وسمات الادب ظاهرة عليها

ولا غرابة فهي التي سمع القارئ منها مقالها لفريد اذ تكاد تذوب وجداً وتخرّ امام هيكل حبه ساجدة « اننا معشر الفتيات لم نخلق لمجالسة الرجال ولا يليق ببنات الشرف الابتذال . وانما الفتاة ملكة تاجها العفة »

ثم قصدت جهة الجنوب وبصرها شائع في انحاء المكان كمن يبحث عن ضائع واذا بها قد رأت فريداً واقفاً من بعيد فسعت اليه بقوة جذبتها اليه كما يجذب المغناطيس الحديد

ولما وصلت اليه مدّ لها يده ومدت له يدها فتصافحا وقد سرت كهربائية الغرام في عروقهما متبادلة واهتزت اعضاؤهما مرتجفة وتناجت العيون بالرغائب وتخاطب القلبان بالآمال . ولم يكن الا قليل حتى رجع فريد الى نفسه ورأى انتهاز الفرصة ليجتلي نور محيا الحبيبة ويقتبس درر ألفاظها الرفيعة . فطلب منها الجلوس معه على بساط الطبيعة فاطاعته حالاً وهي اشوق اليه منه اليها . وجلست امامهُ وجهاً لوجهٍ وايديهما لا تزال مشتبكة وقلباهما مرتجفان الا ان الحياء كان يهجم بجيوشهِ على قلب وحيدة فتطأطئ رأسها وتستر وجهها بطرف الرداء ثم لا تلبث ان يفارقها الخجل بعض الشيء حتى تزيحهُ عن جبينها ويخفق له فؤاد فريد فرحاً

ولما قرّ قرارهما تحرك فريد في مكانه كمن يستعد للكلام ولكنه لم يتكلم فلحظت وحيدة منه ذلك وقالت :

كأني بك تريد الكلام ولكنك امسكت عنه . فهل تراني غير اهل لفهم مقالك ؟

قال فريد كيف تفهمين هذا الفهم ؟ ولكني رأيت ان لا اقول قولاً قد يكون على غير مرغوبك

قالت انك انت على مرغوبي فكيف يكون كلامك على العكس ؟ وغلبها الحياء فسكتت وقد سكر فريد بسلسبيل هذه اللفظة التي وقعت

على قلبهِ برداً وسلاماً وأنعشت فؤاده ايَّ انعاش حتى اذا افاق من الطرب قال :

انك يا وحيدتي قد انعشتِ فؤادي بمقالك . وأرحت ضميري بحريتك في كلامك . واني أعدُّ هذه الحرية منك احسن الخصال وامدحك كثيراً على هذه الطباع . وانك تريني مخالفاً بمبدئي وآرائي في المرأة كثيرين من مواطنيَّ كما انكِ تخالفين في حرية ضميرك وحسن تربيتك كثيرات من بنات جنسك ولذلك لا أخفي عنك ما كنت عازماً على إلقائه عليك وأخرني عنه خوفي من استيائك . . ذلك اني من يوم نشأتي اخذت على نفسي ان لا اتزوج الا من يختارها فؤادي وينتقيها قلبي ويستخلصها ضميري . وكثيراً ما رأيت فتيات وغادات كان القلب يميل اليهنَّ ويشعر بحبهنَّ الا اني كنت لا ألبث ان أعاشرهنَّ وأطلع على تربيتهن واخلاقهن حتى ينصدع عنهن قلبي فاتركهنَّ وأسلوهنَّ والقلب كالزجاجة صدعهُ لا يجبر

نعم كان يمكنني ان اتزوج باحداهنَّ ولكن الزواج امر عظيم يلزمهُ التروي والاحتراس وان لا يهجم الانسان عليه قبل اكتشاف غوامض طريقه والوثوق بعدم وجود الموانع والعوائق كما يلزم قائد الجيش المهاجم من الاحتراس وتجسس الاخبار قبل الهجوم على الحصن او المدينة

وكنتِ انتِ آخر من دخل حبها قلبي وقد ختمهُ الله عليه وختم به حياتي الغرامية فكان ختامها مسكاً فاخترتك لمشاركتي في حياتي بعد ان رأيتُ فيك كل شروط الزوجة الحقيقية . فساعديني بالله على نيل مأربي

والحصول على مرامي . ساعديني بحق الحب الطاهر أو قولي انكِ لا ترضين بي بعلاً فأرتد على عقبي خاسراً اعظم درة فاقداً اثمن جوهرة نقية وأقعد بعيداً عنك حتى اموت اسًى وحسرة أنظر الى السعادة امامي لا اجسر على الحصول عليها . و . . .

ثم ارتجفت شفتاه وتلعثم لسانه فحبس الكلام وظل ينظر الى حبيبتهِ بعينيه المغرورقتين بالدموع وقلبهُ يخفق شديداً مخافة ان يبدر منها ما يدل على عدم رضاها به . غير ان وحيدة لم تدعهُ في انتظاره طويلاً بل اقبلت عليه باسمةً وهي تقول :

ألا تزال في شك من حبي لك يا فريد ؟ ألم تكفك هذه المجازفة مني بحضوري في هذا المكان لمقابلة رجل في خلوة ؟ أتريد بعد هذا دليلاً على انتخابي اياك دون غيرك ورضاي بك ؟ هل تظنُّ اني لم افعل معك هذا الفعل الا وقد فعلته مراراً مع غيرك ؟ كلا وحقك . لم يسبق لي ان واجهت رجلاً سواك وذوي المحارم من عائلتي . فاكتفِ بهذا النزر اليسير من التصريح . واتكل على ذكائك اني اراك من العاقلين . وكن واثقاً بمساعدتي لك بكل ما في وسعي لتحصل على مطلوبك اذا شافهتَ سيدي الوالد . . فريد ! أتريد اكثر من ذلك ؟ نعم في استطاعتي مساعدتك اكثر من ذلك . فهل تطلب مني اكثر من ان أقسم بحقك وحق الوداد النقي اني لا اقبل بغيرك بعلاً ولا اتزوج بسواك ابداً ؟ وهذا آخر قولي قد عاهدت الله وعاهدتك عليه ولا أخلف العهد والميثاق

فأقبل عليها فريد وقد انفتح قلبهُ لها سروراً واندفع يلهج بشكرها

وامتداح اخلاقها ثم مدَّ لها يده قائلاً : فلنتعاقد على العهد والميثاق وان لا يرجع احدنا في كلامه . فقالت وحيدة والحياء والجدُّ يتنازعان محياها : بل فلنقسم بالوداد وحرمة الحب الطاهر ونقول معاً في آن واحد : لا نخون العهد ولا نخالف الميثاق . فقالها فريد معها وتركت يده وترك يدها

ثم قاما ووقفا هنيهة فرحين مستبشرين واكتفيا من هذه الجلسة الغرامية الطاهرة بما تعاهدا عليهِ ثم انصرفا على موعد اللقاء في الغد

الفصل الثاني والعشرون

« أين فريد ؟ »

وما جاء الوقت وحل الميعاد حتى اهتمت وحيدة في الذهاب الى حيث تلقى الحبيب وتتمتع برؤيتهِ في تلك البقعة حيث لا حاسد ولا عذول وامرت باحضار المركبة وخرجت لا يصحبها الا الامل برؤية الحبيب والتمتع باجتلاء محاسن سناه . ولما وصلت الى المكان المقصود نزلت تسعى على قدميها وتجولت في الخلاء وسرحت انظارها في الفضاء يميناً وشمالاً مكررة تلفتها حتى اعياها التعب فوقفت في مكانها واغمضت عينيها ثم فتحتها ونظرت حولها كأنها تكذب وجودها في نفس المكان الذي تريده والذي سبق لها ان تقابلت فيه مع الحبيب ولكنهُ كان هو هو نفس المكان ومحل الاجتماع غير ان قلبها كان لا يطاوعها على تحقيق ذلك خوفاً من إلقاء تبعة التقصير على عاتق حبيبها الذي كانت تقدسهُ تقديساً وتجله عن ان يكون مقصراً فرجعت الى الشك والارتياب في حقيقة المكان

وارتابت في وجودها فيه وعللتهُ بالخطإ او السهو والغلط لسرعة سيرها وشدة محافظتها على الميعاد وحرصها على اللقاء الا ان عامل الصواب والتحقيق غلب على عامل الشك والسهو . فتيقنت وقوفها حيث شاءت وانها في كعبة اللقاء فاخذت تقلب افكارها في الاسباب علّها تعرف سبباً أخَّر فريداً عن الحضور واضطره لاخلاف وعده فلم توفق لسبب ابداً فتكدرت كل الكدر وظلت ثابتة في مكانها لا تسير بل تلتفت الى ماحولها فاشبهت غصناً رطيباً في الخلاء يهب عليه النسيم فيحركه حول نفسه وهو في مكانه لا يتزحزح

ولما اهاج وحيدة الكدر وقد آن وقت عودتها ولم يجئ من جاءت له ضاق صدرها وضاق المكان عليها فهمت بالرجوع تسائل نفسها عن فريد وأين هو ؟ تراه اخلف عمداً ام عزم على السلوان ؟ ولكنني لم افعل معه ما يستوجبه . لا لا ان فريداً ذو شعور لطيف واحساس شريف ولقد رأيت منه الصدق وتفرست فيه الامانة فلا اظنهُ يركن الى اللؤم ويميل الى الدناءة ولكن اين هو ؟ اين فريد ؟ اين انت يا من ملكت القلب ؟

لبيكِ . لبيكِ . ها أنا . قال فريد بصوت لطيف كما انه كان يسمع نداءها وتقدم نحوها وقد صبغت وجههُ حمرة الخجل . وصعد الدم الى وجنتيه فاحمرّتا احمراراً زاده جمالاً على جمال ومدّ يده بالسلام فمدت يدها اليه ولكنه لحظ بعض الانكماش منه والحذر في السلام عليه . ولما قبض على يدها شعر بارتعاش انامِلها وبرودة اطرافها وارتخاء اعصابها فلم يكترث بما شاهده ولم يحفل بما رآه لانه كان ينتظره منها لسبب تأخره عن الموعد

ولكنه كان يحقق صفحها عنه بمجرد العلم بجلية الخبر . فأحب ابتدارها بالكلام فقال اظنكِ تلحظين عليَّ تأخيري عن الموعد ولكنك لا تعلمين الموجب . . فقد كنت في مصلحة ذات شأن عظيم لكلينا

فاهتزت وحيدة هزة لم تخفَ على فريد ثم رأى تجمدات جبينها آخذة في الانبساط دلالة فهمها لغزهِ ووقوفها على ما في ضميره فاراد ان يخبرها بالتفصيل ليريح فؤادها ولو انها علمت بذكائها أن لا شأن لكليهما اعظم من شأن الزواج فقال : قابلت اليوم صديقي ابراهيم وعرضت عليه رغبتي في محادثة والدك في امر زواجنا . فاشار بأن لا أفاتحه قبل ان يتكلم هو معه تمهيداً لاتمام الامر واخذ على عاتقه انهاء هذه المسألة على ما ارغب واتمنى

وكانت وحيدة تسمع الحديث وقلبها يدق فرحاً وقد أنستها حلاوة الحديث مرارة انتظار فريد فلم تعاتبهُ على تأخيره بل قالت : ومتى يكلم ابراهيم والدي ؟

قال سيذهب اليوم ويلمّح له في اثناء الكلام وينظر ماذا يبدي وقد ضربنا موعداً للقاء بعد ظهر الغد بمنزلنا

قالت وعلى ذلك يمكنك ان تخبرني بالامر غداً هنا

قال نعم وفي مثل هذا الوقت وأسأل الله ان لا يطول الامر

فاحمرَّ وجهُ وحيدة حياء وتحركت للاياب فودعها فريد

الفصل الثالث والعشرون

« أفراح وأتراح »

جاءت وحيدة في اليوم الثاني الى المكان ونزلت من عربتها ومشت على رجليها متجهة نحو الجنوب حيث الملتقى ومحل الاجتماع ولكن لم تكد تجول ويقع نظرها على تلك البقعة حتى قفلت راجعة لرؤيتها منظراً افزعها واوقع الرعب في فؤادها لا لأنها ابصرت وحشاً ضارياً خافت بأسهُ وفزعت من منظره او شخصاً غريباً توسمت فيه القحة والدناءة عارض طريقها كما هو نصيب اكثر الغادات في طريقهنَّ من شبان العصر الاراذل بل رأت فريداً حبيبها قاعداً على حجر كبير هناك متكئاً على ركبتيه واضعاً رأسهُ على كفيهِ غارقاً في التفكير وما عهدتهُ الا قائماً في انتظارها مسرحاً بصره في انحاء المكان يبحث عنها ويستقبل العربة من بعيد ويتهيأ لمقابلتها . ولم ترجع الى الوراء مجفلة حتى دفعها الفزع الى الامام مسرعة وافسحت في مشيتها حتى وصلت لفريد ولم يلتفت نحوها فازداد رعبها وقبضت على كتفهِ بيديها . ولم يك لها ثم من صبر على استعمال العقل في تنبيهه بلطف بل استفزها خوفها واضطرابها فصرخت بصوت عال على خلاف عادتها قائلة :

تداركني يا فريد . . . قل لي ما هذا التفكير ؟ . . دع طول الكلام وقص الامر بكلمة واحدة لتنتشلني او اموت في لحظة

فهمَّ فريد واقفاً وقال خيراً

قالت الحمدلله . . ولكنك قد افرطتَ في الايجاز . . . هل قابل ابراهيم والدي ؟ . . قل نعم او لا

قال نعم

قالت هل اجاب ؟ قل نعم او لا

قال نعم

فارتعش جسمها برعشة الجذل وقالت فعلى مَ اذاً هذا التفكير ؟ ولمَ أجدك حائراً ولمَ تجعدات جبينك هذه ؟ ألم تقل ان والدي اجاب سؤال ابراهيم في زواجنا ؟ ألم يكُ هذا جلَّ قصدنا وغاية المرام ؟ ألا يشرح صدرك حصوله ؟ فعلى مَ هذا التفكير ؟ أصلُ اليك حتى ألمس كتفيك ولا تشعر وما كان العهد بك الاّ زائغ البصر في انحاء الفضاء تتوقع رؤية العربة لتقابلني من بعيد . فلا بدّ من امر فادح غلب على السرور فأكمده وأنساك حلاوة بلوغ الامل ولذة نيل الارب وما طالما كنا نعلل النفس بالحصول عليه

فريد . . اني اطلت الكلام فرحماك رحماك لا تطله انت . .

فتنهد فريد طويلاً فأثر تنفسهُ الحارُّ بوجه وحيدة فاستعاذت بالله واشتعل اللهيب في فؤادها وزاد خفقان قلبها وكأنها حمّت فقالت

رفقاً بنفسك وبي قل ماذا جرى ؟

قال قلت خيراً ولكن . . وسكت فصرخت قائلة ولكن ماذا ؟

قال لاشيءَ فقد جاءني ابراهيم واخبرني انه لمّح لوالدكِ ضمن الحديث برغبتي في مشافهته بأمر زواجنا فرأى منه ارتياحاً وانبساطاً لسماع الحديث

وقد قال له انه يود من صميم فؤاده ان أخاطبه بنفسي فيسرع لاجابة الطلب لحبه لي وعظيم مكانتي من قلبه

واطال فريد السكوت . فقالت وحيدة : ذلك ما علمته أولاً وما فيه الا كل السرور والاغتباط . فقل لي بالله ما سبب التفكير والكدر ؟ أصعبَ عليك ان والدي اجاب فوراً ؟ ؟ أرخصت في عينك لأنه لم يتمنع ؟ ؟

فضاق صدر فريد ولم يرَ بداً من اخبارها بما كدره وقطع حبل الهناء واوقف تيار الفرح فقال اعلمي ايتها العزيزة اني بعد مفارقتك بالامس ذهبت الى المنزل انتظر بريد المساء كعادتي في كل يوم ويا ليته لم يجئ فهو اصل الكدر وينبوع الهم . ولا اطيل عليك فقد كان به أمر مصلحة الصحة بترقيتي التي كنت لا اودها وقد تفرحين لعلو مرتبتي وتعجبين كيف لا ارضاها لنفسي !

فقاطعته وحيدة بقولها كل العجب ! !

قال نعم ولكن لو تعلمين اني قد نقلت وسأترك الحمراء . . فلم تمهله الفتاة حتى صرخت قائلة . الآن عرفت السبب ورأيتك محقاً في كدرك ماذا قلت ! ! أتقول قد نقلت ! ! هل تترك الحمراء ؟ الى اين ! أتسكن داخل المدينة ؟

قال لا ايتها العزيزة ولكن اتركهما معاً

قالت تسافر ! ترحل ! اين . الى اين ؟ ؟

قال الى اصوان مفتشاً لصحة مديريتها

أصوان ! آه يارب . ما هذا الحظ السيء ؟ لم افعل ما يستوجب السخط والمقت

خففي عنك ايتها الحبيبة فعسى ما نكرهه اليوم نحبه غداً

ولكن ستنساني يا فريد وتسلو فتاة طاهرة اخرجها حبك من حصن تمنعها وهتك لطفك حجاب انزوائها

حاشاي ان انسى هذه الاوقات او اسلو غرامك فلا تظني اني تاركك اسيوط قبل عقد القران فسأصحب ابراهيم صباحاً الى والدك واكلمه ونحدد اليوم في اقرب وقت وسأرسل والدتي غداً الى منزلكم لتأدية المراسم العائلية في مثل هذا الصدد . قالت ليكن ما يريده الله

قال لايكون الا كل الفرح والخير وما كان كدري واشتغال بالي الا لتفكري في تعيين المدة بين العقد والعرس وكيف اقضيها في اصوان بعيداً عنك اقطع ايامها ولياليها فريداً وحيداً

قالت فلنستعن بالله عليها وليخففها قليلاً افتكارنا دائماً باللقاء الدائم والاجتماع الذي لا انفصام بعده

قال ما احسن اعتقادك بالله وما الطف افكارك

فسكتت وما كان قلبها لينفتح بالسرور وفمها بالابتسام وتحركت للمسير لدخول الوقت عليها وودعته وانصرفت مثقلة بالهموم ورمت بنفسها في العربة ومن ادرانا انها لم تذرف الدمع السخين على سوء حظها ولو انها مطمئنة قليلاً

وسار فريد الى منزله حزيناً كئيباً

الفصل الرابع والعشرون

« الدهر لا يبرك طبعه »

وذهبت والدة فريد في الصباح الى منزل صادق وأدت الواجبات العائلية في مثل هذا الامر وذهب هو بعد الظهر يصحبهُ صديقهُ ابراهيم فقابلا صادقاً وفتح باب الحديث فكان صادق مجيباً بكل سرور مظهراً ان اتصاله بنسب فريد يعدّه نعمة وخيراً. وكان فريد يشكر الله ويحمده لانه جمعه بأسرة شريفة كريمة

ثم عطف الاثنان على مدح ابراهيم وحسن عشرته وكرم اخلاقه . فوفاهما الآخر حقهما من الثناء

وتذاكرا بعد ذلك فى تحديد يوم العقد فحدداه بعد ثلاثة ايام . ثم انصرفوا للاهتمام بشؤونه

وجاء اليوم الثالث وقد دعا الفريقان الاصدقاء والاعيان والسراة ليشهدوا العقد وكان الاحتفال فى غاية المهابة ومنزل صادق كما عرف القراء من وصفه فيما سبق متوسط الاتساع فكان يموج بالمدعوين الا انه لا هرج بينهم ولا ضوضاء يرفرف على رؤوسهم طير السرور ويترقرق في وجوههم ماء البشر لما في قلوبهم من حب فريد واجلال صادق

وكان اكثر الكل فرحاً واشدهم سروراً ابراهيم فبعد ان رأى عقد الجمع قد انتظم وجه انظار صادق ومن وكل لتنظيم الحفلة الى وجوب الشروع في العقد فنادى مناد بذلك وخفق قلب كل صديق وزاحم القوم

بعضهم بعضاً ليكون كل منهم في اقرب مكان يمكّنه من مشاهدة فريد فيشاركه في اغتباطه واذا بصراخ شديد وعويل حار وبكاء مر اذعر الجميع فانصتوا فاذا هو من جهة النساء في نفس المنزل فاسرع صادق يتعثر باذيال الفزع ويتخبط على الدرج ولم يغب غير قليل حتى عاد صارخاً وهو يقول ابنتي ابنتي اليّ يا صديقي اغثني يا الله ودخل على فريد وقد غاب المسكين عن صوابه فمد اليه صادق يده فقام البائس على غير هدى وذهل القوم وصعد صادق وفريد ولم يشعر الاخير الا وهو بين صارخات معولات لاطمات باكيات ونظر الى جانبه فاذا هو بفتاة في احسن ما يكون من الثياب والرياش وعليها اثمن ما رأى من حلى الذهب والماس والياقوت ملقاة على فراش وقد صبغ وجهها الاصفرار وندى العرق البارد جبينها وصدرها يعلو ويهبط بسرعة دلالة على ضيق تنفسها واحتباس رئتيها وبجانبها جارية سوداء تبكي بحرارةٍ وتقبل يد الفتاة مرةً بعد أخرى

ولا أكلف نفسي وصف ما زاد على همّ فريد وكثرة ما ألمّ به من الذهول حينما تبين له ان الفتاة الراقدة بين الحياة والموت هي وحيدة التي وقف عليها حياته والتي من اجلها جاء ذلك الجمع المحتشد ليشهد حفلة عقد زواجه بها

عرف ان البكاء والارتباك لا ينفعان في مثل هذا الوقت بل يضران فلم يلبث ان شرع في المعالجة فتقدم اليها وقبض على معصمها فوجد النبض طبيعياً تقريباً ووضع اذنه على صدرها ليختبر رئتيها فلم يجد فيها ما يدعو الى الخوف فتنهد ثم وضع يده على جنبها الايسر ولم يلبث ان تغيرت

سحنته حالاً ودق الارض برجله شديداً ورشق صادقاً بنظرة حادة نبهته من ذهوله ولكنه لم يفهم المقصود بها فقرب منه ليستفهم ولكنه رآه مهتماً في خلع ثياب وحيدة وما كان يستعصي عليه يمزقه حالاً حتى كشف عن جزعها ثوبها الفوقي وعاد فرمى صادقاً بنظرة احدّ ولم يجعل له فرصة يسأله فيها بل قال :

هذا جزاء التفريط واشار الى جزع وحيدة ففهم صادق القصد حيث رأى المشد على صدر ابنته وتذكر حالاً قول فريد في المرة الاولى وخطبته في حفلة الاجتماع بالحمراء وعجب كثيراً كيف تلبس وحيدة مشدها بعد علمها الضرر وتحققها الاذى منه

وما ابتدأ فريد في تقطيع اربطة المشد حتى اخذت المسكينة في الانتباه فارتفع صدرها عالياً ثم انخفض بشدة وفتحت عيناها وابتدأت حركتها وشرعت في اجالة نظرها في الحضور ثم همت جالسة

فتنفس فريد الصعداء وتنهد صادق واستبشرت الجارية وخفضت النساء من العويل وقطعن الصراخ واطمأن الجمع اذ سرت اليهم البشرى بزوال الخطر

وقال فريد ألم أنهكِ عن المشد ولبسه ؟ ألم أحذركِ عاقبة خطره ؟ ألم أسرد عليكِ انواع ضرره ؟

فقالت لم ألبسه من ذلك الوقت الا الليلة بعد مجادلة طويلة بيني وبين السيدات وبعد ان اقنعني بوجوب لبسه الليلة لضرورة سبك الثوب وتحسين هندامه وقالبه ولاني توهمتُ ان لا ضرر منه بمجرد وضعه قليلاً من الوقت

ولكن كان عليكِ ان تتذكري طويل هجرك له وانك لا تحملين شدته بعد ذلك الوقت الطويل لانهُ كآفة الخمر يسكر الانسان بالقليل منها في اوّل الامر ثم لا يلبث ان يتعودها حتى لا يسكره اكبر قدر فاذا تركها زمناً وعاد اليها فلا يحتسي كأساً واحداً حتى يسكر . والسرُّ في ذلك تأثير العادة

وهمَّ صادق بتأنيب كريمته ولكن فريداً باشارة خفية منعه ورأى من اللازم اسعافها ببعض المنبهات واتخاذ عملية التدليك لتنبيه الجسم . وكان الوقت قد أزف وطال الامد بالناس والعلاج تطول ساعاته فاضطر بالرغم عنه ان يتفق مع صادق على ان يعلن ارجاء العقد لليلة قريبة يتفقان عليها فيما بعد ويعلنانها وعلى ذلك انصرف الجمع آسفاً ساخطاً على معاكسات الدهر

وظلّ ابراهيم وحدهُ في انتظار فريد حتى نزل بعد اجراء اللازم وتركها في صحة حسنة فأخذ بيده وانصرفا الى الحمراء صامتين مفكرين . وكان الوقت بعد منتصف الليل فلم يكُ يسمع الاّ صوت وقع حوافر الخيل وجرّ عجلات العربة على الارض

الفصل الخامس العشرون

« صدى الحادث »

اخذ العجب من بعض اهل اسيوط الذين لم يقفوا على حقيقة ارجاء العقد كل مأخذ وأوّلها كلٌّ بما شاء وكاد الكدر يقضي على صحة فريد وكان يزداد هماً كلما افتكر في احوال نفسه وانه لا يتمكن من اعادة الحفلة

لضرورة سفره الى اصوان مقر وظيفته الجديدة التي رُقي اليها فكان ابراهيم يسليه ويسري همهُ وان كان لا يقلُّ عنه كدراً وحزناً

ولم يك حزن صادق اقلَّ من حزنهما ولكن لا حيلة له فكان دائماً يعض كف الاسف ووحيدة لم تفق من تأثير المشد حتى وقعت في اشد منه تأثيراً فاختلت بنفسها ومالت الى الوحدة والانفراد ونفر طبعها وصارت لا تميل لاحد ممن حولها وكان انيسها في الوحدة دمعها الهطال فكانت تبكي بحرارة وتناجيه ان كان لها نصيب من فريد او كان لذاك الاحتفال رجعى قريبة

وبالجملة كانت المسكينة تبكي اكثر لياليها والارق حليفها والتوجع نشيدها وكانت تتخيل الشقاء طيَّ ثيابها وتتوهمهُ منذرها بطول الفراق فيكاد الجزع يقضي عليها وهكذا حتى نحل جسمها ودق عظمها ورقَّ جلدها وصارت حالتها خليقة بالتوجع والتحسر . ونفدت وسائط المحبين في تسليتها على غير جدوى . كما انها كانت تشعر بما تتناقله افواه الاسيوطيين وما اتهموها به بغير علم ولا معرفة الحقيقة مما هي منه براء

وفي ذات ليلة ارقت الوالدة من شدة الافتكار بابنتها فقامت الى غرفتها وكانت الساعة في منتصف الليل ووجدت الضوء ينبعث من بابها مما دلها على تركها له مفتوحاً فاقتربت منه بخفة وانصتت تتسمع فطرق أذنها صوت كريمتها مرتفعاً كأنها تخاطب احداً معها فدخلت عليها واقتربت منها فوجدتها وحيدة وليس معها احد فاستغربت استرسالها في الكلام ودلها عدم قيامها لها على نومها واستغراقها في النعاس وانما هي تتكلم

في الرؤيا فكاد قلبها يخرج اشفاقاً وحناناً ولا جرم فان قلب الام ارق من جناح الفراش

وتبينت الوالدة كلام الابنة فاذا هي تقول :

ولقد ذكرتك والظلام كأنه يوم النوى وفؤاد من لم يعشق

ثم تذكر اسم فريد وتناجيه وتسأله ان لا ينسى فتاة اخلصت له الحب ووقفت عليه حياتها فهي دائماً تفتكر به ثم تستخبره هل في عزمه اعادة الكرة على المشروع الاول وطاب القران او طُوي الحظ السعيد كطي السجل للكتب وانتشر النحس كانتشار رداء الكسل على ارض مصر فلا امل في السعادة ولا رجاء في رجوع الماضي

وقد طال وقوف الوالدة وطال كلام الابنة الاسيفة وكأنها قد افاقت من النوم فكان ختام الرؤيا البكاء والنحيب فأخذت من فوق الوسادة منديلاً ابيض وضعتهُ على عينيها وكانت تنظر اليه مرة بعد أخرى لتوهمها انها تبكي دماً لا دمعاً . وتفطر قلب الوالدة فبكت لبكاء ابنتها بحرارة وشهيق فانتبهت الابنة وقامت اليها وامتزج الدمع بالدمع والشهيق بالشهيق حتى احسا براحة وانفراج وطالما كان البكاء سلاح الحزين العاجز ثم قالت الام :

أليس لهذا البكاء آخر يا وحيدة

- عمر الفرح قصير يا والدتي اما الحزن فقلما يذهب بدون ان يترك في القلب أثراً

- نعم ولكنه يؤثر على الصحة ويضني الجسم

- وماذا ينفعني من صحتي وقوة جسمي بعد انقطاع الامل منه ....
واجهشت بالبكاء فاغرورقت عينا الام بالدموع ولكنها احتبستها مخافة على ابنتها واخذت تسليها تارةً وتعنفها أخرى حتى سكنت فلم تشأ ان تجدد عليها الافكار وتقلب لهـا اوراق كتاب الحوادث وسألتها الرقاد واسبلت على سريرها كلّته فالتزمت وحيدة السكوت مراعاة لوالدتها واشفاقاً عليها من البكاء فغلبها النعاس لكثرة التعب وشدة النحيب فنامت نوماً عميقاً وانسلت الوالدة الى مضجعها وطرحت نفسها في الفراش تفكر في حالة ابنتها لو دام الحال على ما هو عليه

الفصل السادس والعشرون

« طارئ جديد »

في غروب ذات يوم كان يتمشى على شاطئ النيل بمدينة اصوان شاب حسن البزة فاخر الثياب لطيف الطلعة باهي الجمال تظهر على وجهه معالم الهيبة والوقار كما تجلله علائم الكدر واشتغال البال.. ذلك هو صاحبنا فريد مفتش صحة مديرية اصوان الذي يعرفهُ القراء ويعلمون ما كان عليه ذاك الفتى وما اتصف به من اللطف وما احرزه من المكانة في قلوب الاسيوطيين الذين قلّ ان يعجبهم احد

كان فريد يتمشى على الشاطئ منكس الرأس علامة الاستغراق في التفكير ثم اخرج من جيبهِ كتاباً اخذ يقرأ فيه ما يأتي وهو بين عاملي اليأس والرجاء

عزيزي فريد

لو استعنت بالخلق جميعاً يكتبون لما سطروا جزءاً من شوقي اليك واكتئابي على اخ حميم قضى معي شطراً من العمر أسعد من حظ الشهداء والقديسين. لذلك اكتب هذه مقتنعاً بأن العجز عن حصر الشوق برهان على شدته مكتفياً بمناجاة القلبين

اما ساكنة فؤادك فما زالت تسكن خدرها وقد حاولت كثيراً ان اراها في عربتها كما كان في ايامك فلم اتوفق واتخذت ذلك دليلاً على هجرها المتنزهات والمسرات حزناً لفراقك وثباتاً على عهدك . فما اسعدك واسعدها بك . واخونا صادق يهديك مزيد شوقهِ وكلنا نخصك بالسلام ونتمنى لك حياة طيبة وعيشاً هنيئاً

ابراهيم

ثم طوى الكتاب ودسهُ في جيبه واخرج كتاباً آخر هذا نصه

ولدي العزيز

مرَّ على انتقالك زمن ولم تحضر بالاجازة كما اخبرت ولا شك ان الجوَّ عندكم الآن اشدُّ مما هو عندنا حرارة فلعلك تحضر قريباً ليتمتع بك اهلك الذين يتلهفون على رؤيتك وبالجملة فجميع اهل السويس مشتاقون اليك . فأسرع بنيَّ فابنة خالتك في انتظارك وقد اعددنا لوازم القران

وتقبل سلامي وشوق والدتك ودعاءها

عمك

ووضع الكتاب ومشى يقول بين نارين يا الهي ماذا افعل . . أسألك تدبير أمري وصلاح حالي . أأجرح قلبي ام اعصي عمي وهو الذي رباني من بعد والدي ؟ فأسهل الامرين صعب واحلاهما مرٌّ . نعم اوصى المرحوم

والدي بزواجي بابنة خالتي وهي ذات مال وافر وجمال ولكن سلطان الهوى شديد القوى يحجب كل شيء ويبرر الغاية ويضحي المال والجمال والشرف في بعض الاحيان

وظلّ فريد يقلب نار الافكار وهي تسطع امامهُ فتزيغ بصره ويتصفح الهواجس وهي تتلقفهُ فلم يستطع القرار على شيء يريح فؤاده ويفرج همهُ أيترك وحيدة بعد ان اقسم لهـا انه لا يخلف وعده معها وميثاقه عدا ما يستميله اليها من الوداد وما يسطو على قلبه من غرامها وهواها خصوصًا وقد وعد بتحديد ليلة العقد بدل تلك الليلة التي اظلم جوُّها بذلك الطارئ المنحوس ؟ أو يترك ابنة خالته ويخالف وصية ابيه ويغضب عمهُ وينفر ذوي رحمهِ وهو اوّل من يقدس رضى الاقرباء ؟

نعم كان يعرف تلك الوصية وان تلك الابنة موقوفة عليه وان والدته تعرف ذلك وخطر في فكره ان توقف والدته اولاً عن موافقة زواجه وحيدة ما كانت الا لنفس هـذا السبب وانها ما وافقت اخيراً الا تابعة امياله مائلة مع اهوائه ورغائبه وهو لم يشأ ان تعلق بذلك اقاربه او يخبر بليلة العقد عمهُ لئلاّ يحول دونها حائل . وترك علمهم بها للايام وقرائن الحال كأن يعلمونها بلسان الجرائد او من والدته بعد الاحتفال حينما تذهب الى السويس وعلم ايضاً ان عمه لم يضع هذا التلميح في كتابه الاّ بعد علمه ان والدتهُ كانت قد ذهبت الى السويس على ان تعود الى اصوان بعد اعداد المنزل هناك

ولا شك ان الموقف كان من حقه ان يرتبك له فريد ولكنه عزم اخيراً على الذهاب الى اسيوط لمفاوضة صديقه ابراهيم في الامرين

الفصل السابع والعشرون

« سرور مزادف »

تركنا وحيدة في نومها العميق وقد طلعت الشمس على سطح منزلها ثم بلغت نافذة غرفتها وتسللت اليها تزورها وهي شريكتها في اصفرار الوجه وحرارة القلب واكبت على وجهها كأنها تقبلها فشعرت بحرارة القبلة

فقامت الى كرسي في الغرفة مذعورة توبخ نفسها على كثرة النوم وسبق

الشمس لها في القيام وودت ان تبكي على ذلك لو لم تبصر والدتها داخلة عليها وبيدها كتاب عرفته بقلبها حالاً انه من اصوان وانه من الحبيب لا محالة فمدت يدها في سكوت فاخذته من الوالدة بعد ان حيتها تحية الصباح فردتها الوالدة واخذت رأس كريمتها بين يديها فرسمت عليها قبلة حارة تشف عما في قلب الأُم من الحنوّ وقالت :

— كيف انتِ اليوم يا وحيدة ؟

— بخير يا والدتي أتمنى ان تكوني كذلك

نحن كذلك يا ابنتي ما دمتِ بخير فانه لا يكدرنا الا ما نراه مرتسماً على وجهكِ من الهم والكدر

وكانت وحيدة تسمع وعيونها في الكتاب فقرأته وعاودت القراءة فابتسم ثغرها وجرى ماء الحياء في وجهها فاحمرّ بعد ان كان ذابلاً مصفرًّا وسطعت الشمس في فناء الغرفة غيرةً من ذلك الوجه النضير ولحظت الأُمُّ ابتسام ولدها فاشرق جبينها من السرور وقالت :

— هل قرأتِ الخطاب ؟

— نعم اظنهُ ورد على بريد الصباح

— نعم . وارسلني به والدكِ اليك لتريهِ بعد ان قرأه عليَّ . هل فهمت تلميحاته هذه المرة ؟ انه عزم على الحضور

فاحمرّت وجنتا وحيدة واقترَّ ثغرها عن لؤلؤ منظوم سرَّ الوالدة منظره فطوقتها بذراعيها وضمتها اليها وقبلت رأسها كثيراً ثم اخذت بيدها تقصد الباب فقامت وحيدة معها وبعد ان اصلحت من شأنها عادت الى

الغرفة فبدلت ملابسها وازّينت فكنت تراها كعروس تجلى او غزال يجري ويرتع خالي الذهن والبال مما سرّ اهل المنزل وابهجهم

وبعد ايام قضتها وحيدة مسرورة معللة نفسها بقرب قدوم الحبيب ومشاهدته سمعت صوت مركبة وقفت عن السير امام باب المنزل فاسرعت الى نافذة تطل عليه وقد دق قلبها دقات متواليـة ولكنها لم تجده هو بل صديقه ابراهيم فخفق قلبها ثانية لان صديق الحبيب وكل من يلوذ به حبيب

واستقبل صادق ابراهيم وجلسا يتحادثان ويذكران ما مضى من الايام العذبة بمعاشرة فريد . وعلى ذكره قال صادق انه ارسل لي خطاباً يقول انه ربما جاء اسيوط قريباً وقال ابراهيم انه ارسل لي مثله يقول فيه انه سيرسل اشارة برقية قبيل حضوره

ثم تحادثا في مسألة القران . فقال ابراهيم اني اعرف صديقي فريد وصدق عزيمتهِ فانه لا يرجع عن عمل شرع فيه الا بعد اتمامه

— نعم هو كذلك ولكن يحدث في بعض الاحيان مايقهقر المرء عن عزمه وان حادثة فشل العقد ربما ارجعت فريداً الى الوراء

— لا تفتكر ذلك ولا تتصور شيئاً يرجع فريداً وتأكد انه . . .

وقطع حديثهُ دخولُ خادمه يحمل اشارة برقية سلمها اليه ففضها وقرأ ابراهيم بأسيوط

حاضرٌ اليوم اليكم بالاكسبريس فريد

خفق فؤاد صادق وتناول الاشارة واعاد قراءتها ثم اخرج ساعتهُ فاذا القطار يصل الى اسيوط بعد ساعتين فقال :

— انهُ يصل بعد ساعتين . فلنتناول جميعاً هنا طعام الغداء

— لا بأس على ان يكون العشاء عندنا

— وهل نخرج الآن استعداداً لمقابلته ؟

— نعم . ولكي نمرّ على اصدقاء فريد سليم وجورج لنأخذهما معنا الى المحطة

ونادى صادق خادمهُ فامره باعداد الطعام لضيوف كرام وهمس اليه بان فريداً حاضر معهم اذ يصل على الاكسبريس

وكان الخادم يعرف مَنْ هو فريد وما هي منزلته عند مواليه فصعد يحمل هذا النبأ السارّ وهو يشعر بما يحمل من السرور حتى وصل الى مولاته والدة وحيدة فأخبرها ما قاله مولاه فخفق قلبها سروراً فلم ينبهها غير صوت الخادم يستأذنها في الذهاب الى مولاته وحيدة ليبلغها الخبر فلم تشأ اظهار خفايا كريمتها للخادم ولو كان لايخفى عليه شيء من احوالهم خصوصاً بعد ان ظهرت هي امامه بمثل ذلك الضعف فقالت له انزل انت الى زميلك وأعد غرفتي الاستقبال والأكل

وقامت هي الى ابنتها فكانت ساعة لا تقدر لذّتها ولا يعرف مقدار تأثيرها

الفصل الثامن والعشرون

« الى المحطة »

بينما كان منزل صادق يموج استعداداً للاحتفال بالقادم العزيز ووحيدة

ترتب اللوازم مسرورةً كان والدها يرافق ابراهيم في مركبتهِ يطلبان اصدقاء فريد ليخبراهم بقدومه حتى اذا جاء وقت القطار ازدحم فناء المحطة بجموع المستقبلين . وما دوى صوت القطار وعلا صفيرهُ حتى ابتهجت القلوب وتحولت اليه الانظار وما خفت صوته ووقفت حركته حتى ارتفع صوت المهنئين لفريد بسلامة الوصول وتحركوا اليه يصافحونه ويقبلونه وبعد ذلك ركب مع ابراهيم وصادق ورافقهم اثنان من اصحابهم غير جورج وسليم

وما وقفت المركبات على باب المنزل حتى وقف الدم بغتة في عروق وحيدة كما هي عادة المحبين وسنة اهل الهوى التي يفسرها الكتاب ويؤولونها تآويل شتى ثم وقفت وحيدة جامدة وربما كانت تظل كذلك لو لم تحضر والدتها تستعجلها في اتمام معدات المائدة

ولحظت الام اضطراب ابنتها فعذرتها لما شاهدته هي من نفسها ساعة سماعها البشرى ورثت لحال وحيدة ولم تفاتحها بشيء بل دعت الى الله ان يتم السرور بالقران فكأن تلك الام الحنون قد جربت الهوى وربما ذاقت طعم الحب في ماضي حياتها مع صادق وسبرت احوال الشوق والصبابة وقد قيل

لا يعرف الشوق الآ من يكابده ولا الصبابة الا من يعانيها

وكان صوت فريد يخرج من بين اصوات المدعوين فيصل الى اوتار قلب وحيدة فيحدث حركات موسيقية يلذها سماعها فتصغي بكل قواها

وبعد الطعام انتهز فريد فرصة اشتغال اصحابه في الحديث وجلوسه بجانب صادق فحادثه وقلبه يهتز اهتزاز القصبة في يوم عاصف .. ذلك لان

الحديث كان سبيلاً للتوصل به الى السؤال عن صحة خطيبته ومحافظتها او مخالفتها لوصيته لها بترك المشد . فقال صادق انها على ما أرى في صحة تامة وقد تركت المشد بتاتاً ولم يقع بصري عليها تشده من بعد تلك الليلة

فاصفر وجه فريد لذكر تلك الليلة وحادثها المشؤوم الذي لولا المشد لكان اليوم في ارغد عيش متمتعاً بوحيدته . وقال فريد بعد هنيهة : انها اخطأت كثيراً بانقيادها لكلام السيدات تلك الليلة

— نعم وقد أيقنت بخطائها وهي اليوم تحاسب نفسها عليه واردت استدعاء الطبيب غير مرة لفصحها والتثبت من سلامة صحتها ولكنها رفضته كل الرفض

فاحمر وجه فريد واستمر صادق في الكلام ايضاً قائلاً اما الآن وقد حضرت انت فلا بد من عيادتها ولا اظنها اليوم تجسر على الرفض

ولم يحمر وجه فريد فقط في هذه المرة بل اهتز جسمه اهتزازاً .

وعاد فريد خطيبته ومعه والدها فكانت عيادة طبية غرامية عادت عليهما بالنفع الجزيل والشفاء التام فكان كل منهما طبيب الآخر

وخرج صادق عنهما في حاجة له وربما قصد الابتعاد ليكونا في خلوة يبثان ما عندهما منفردين فقد علم طبعاً ما يربطهما من رباط الغرام المباح وما يشغل قلبيهما من شواغل المحبة المحللة وكان في غياب فريد يشفق على ابنته ويحن اليها . وكانت كل أمانيه ان يحضر فريد فيأخذه لعيادتها ويتركه بها منفرداً لتبث له ما في فؤادها تخفيفاً عنها لعلمه انها لا تخبره بشيء الا ان تكون معه وحيدة

فأيُّ كاتب بليغ او اي شاعر فصيح يتخيل ذلك الموقف الرهيب وتلك الساعة الهائلة ويصف ذلك المشهد الغرامي بل ايُّ مصوّر ماهر يحسن تماماً تصوير حالة الحبيبين في خلوتهما وهيئتيهما

الفصل التاسع والعشرون

« أبن الشعراء ثانية »

وفي المساء تناول الاصحاب عشاءهم في منزل ابراهيم وقضوا هناك سهرتهم بين الحديث والضحك ثم انصرفوا وتواعدوا بالملتقى في الصباح

ولما خلا المكان لابراهيم وصديقه فريد أخذا في الكلام وبث الاشواق ومراجعة الماضي من عشرتهما وما كانا فيه من السرور والهناء . وبعد ذلك أطلع فريد صديقه على ما وقع فيه من الارتباك وأفهمه جلية الخبر وأعلمه وصية ابيه وأراه خطاب عمه فكان ابراهيم يسمع وهو في غاية الدهشة والحيرة حتى لم يدر ماذا يفعل ولا بما يشير وذلك لعلمه بحب صاحبه الشديد لوحيدة وصعوبة الفراق وبعده عنها ثم اخذ يفتكر بصادق وابنته وما يحل بهما لو تم زواج فريد بابنة خالته

وكان يرى من فريد انه لا يريد الا وحيدة ولكنه يريد التخلص من ورطتهِ الجديدة تخلصاً حسناً بلا تشويش في عائلته ولا احداث ما يكدر صفو أقاربه ولا يغضب عمهُ ولا يخالف وصية ابيه . فارتبك ابراهيم أيَّ ارتباك وحار في الامر ولم يعرف ما يشير به على صديقهِ والتفت اليه وقال :

– لا يسعني ايها الاخ إزاء هذا الحادث العجيب الا الصمت لاني لا ادري هل أشير عليك بهذه فتخالف وصية ابيك وتسخطهُ عليك ؟ او بتلك فتربح رضاه وتغنم رضى عمك واقاربك ؟ غير اني أفضّلُ هذه وأنا حائر في كيفية التخلص

قال فريد : أيْ صديقي قد ترجمتَ عني وعرفتَ ما بقلبي وقد جئتُ من اصوان لأستشيرك في الامر وأعرض عليك هذا الحادث الذي أقلقني وحيّرَ بالي . واني ارى ان أعجّلَ بالاجازة والذهاب الى السويس لأنظر ما يجب عمله وأجد لي مخرجاً

قال ابراهيم نعم الرأي واني لأرجو أن ترسل لي يوم سفرك لاصحبك الى السويس فأطلع على ما سيكون ونتعاون على الامر . فشكره فريد

وفي الصباح ودع فريد أصدقاءه ومحبيه وآب الى اصوان وطلب الاجازة قبلها واستعد للسفر وفي يوم قيامهِ ارسل لابراهيم اشارة برقية فتلقاه على محطة اسيوط ومنها رافقهُ توًّا الى السويس

وكانت وحيدة تتوقع ان يتكلم فريد في شأنها او يظهر رغبتهُ في تجديد موعدٍ للعقد كما كان الاتفاق اوّلاً وتفتكر ان حضوره كان لهذا الصدد . فلما لم ترَ ذلك تراكمت عليها الافكار وعاودتها الهواجس فصار نهارها ليلاً بل اشدّ ظلمةً وليلها نهاراً تقضيه في السهد والبكاء ولكن لانور فيه

ولم تكن والدتها اقلّ منها حزناً الا انها لإشفاقها عليها وخوفها على صحتها كانت تظهر امامها الجلد وطالما عنفتها على حزنها وكثرة بكائها

وكذلك كان صادق في شدة الكدر على حال وحيدتهِ وقد اشتغل

باله لعدم مفاتحة فريد له في شيء من قبيل مسألة الزواج وتحير كثيراً ولم يجد غير ابراهيم معيناً ومشيراً

فذهب اليه ذات يوم يتحسس الاخبار فعاد على غير طائل اذ كان في عزم ابراهيم ان لا يذكر له شيئاً الا بعد رجوعهِ من السويس ووقوفهِ على ما يتم . وخيراً صنع ابراهيم فقد صدَّ ويلاتٍ واحزاناً عن نفوس كريمة

وعلى ذلك لم يعلم صادق ولا اهلُ بيتـه ما سيكون وظلوا بعد سفر فريد ينتظرون خبراً فطال انتظارهم . وقلقت وحيدة فكتبت اليه بعنوان اصوان كتاباً صادف وصوله غياب فريد في الاجازة فتحول له بالسويس فحدث من ذلك طول انتظار شغل بالها وهيج بلبالها وذهبت في تأويله مذاهب شتى لم تدرِ أيها الاصح والاحق

ولما عيل صبرها واضمحلَّ عزمها رجعت الى حالتها الاولى واستبدلت الصبر بالجزع والبشر بالعبوسة والسرور بالحزن والفرح بالترح فشغل حالها هذا قلبي والديها

فذهب والدها المسكين مرة اخرى الى ابراهيم لكي يسأله ألا تزال خطابات فريد ترد عليه واخباره تصل اليه ولكنه لم يصل الى منزله حتى قيل له بغيابه انه سافر ولا يعلمون الى اين والى متى يؤوب وكأنهم كانوا موصون بذلك من مولاهم. ولما لم يقف صادق على شيء رجع بحزنه وكدره وزاد اشتغال باله وفكره وبعدت دواعي انسه وبشره وحاول كثيراً معرفة سبب سفر ابراهيم فلم يفلح ولم يوفق وطرأ على فكره ان يكون قد سافر الى اصوان غير انه لم يلبث ان راجع نفسه ولم يقدر على بت امره ولا

الوقوف على شاطئ بحر من بحور هذه التخمينات الهائجة فرجع الى اهله آسفاً كئيباً

وكان رجوعه على هذا اليأس والقنوط سبباً في ازدياد همّ اهله وكدرهم خصوصاً ابنته التي لم تجد صبراً فذهبت الى والدتها ولم تقدر على كتمان حزنها عنها ويأسها من فريد فسلتها الوالدة وصبّرتها غير انها اشفقت على ابنتها وانفطر قلبها على حالتها فاسرعت لى زوجها تستخبره هل عنده علم عن فريد فلم تجده اكثر منها علماً فتذاكرا وقر رأيهما أخيراً على ان يكتبا الى فريد كتاباً يطلبان منه الجواب عن رأيه الصريح في مسألة قرانه بكريمتهما وارسلا الكتاب الى اصوان وانتظرا الجواب فلم يأتهما في الموعد الذي رجحاه وطال عليهما الامر فجزعا وتخوفا وازداد خوف وحيدة لان والدتها كانت قد اخبرتها بما ارسلاه الى فريد وبعد أمد طويل وصل الى صادق كتاب وكان جالساً بين زوجته وكريمته لا حديث لهم الا الخطاب وتأخير رده وما عسى ان يقول فريد فلما حضر الخادم بالكتاب أخذته وحيدة بخفة وحركة لا تخفى على الولهان المشوق وسلمته لوالدها بعد ان لاحظت انه ليس من فريد بدليل تغير خط عنوانه عن خط فريد الذي تعرفه حق المعرفة ولا تنساه

وقد احدثت هذه الملاحظة عندها اعظم كدر على كدر وانكمش فؤادها بعد ان ابتدأ في الانبساط ساعة رؤية الخطاب ثم زاد اضطرابها حين قرأه والدها وهذا نصه :

عزيزي صادق

وصل لصديقي فريد خطابكم محولاً اليه من اصوان فكلفني ان اخبركم

بعدم مقدرته الآن على اجابتكم عليه وتقبلوا منه ومني عاطر التحية

صديقك ابراهيم بالسويس

فأين الشعراء تأنيةً ليتخيلوا في قصائدهم حال البؤساء الثلاثة وما فعل بهم الجواب وغموضه والى اي معنى حولوه والى اي غرض أولوه وهل سافر ابراهيم الى السويس لحضور الاحتفال بعرس فريد ... سرٌ غامض وحزن شديد فاللهمَّ رحماك . . .

جنونٌ وعشقٌ ذا يروح وذا يغدو ... فهذا له حدٌّ وهـذا له حدُّ

هما استوطنا جسمي وقلبي كليهما ... فلم يبق لي قلب صحيح ولا جلدُ

وقد سكنا تحت الحشا وتحالفا ... على مهجتي ان لا يفارقها الجهدُ

فأيُّ طبيب يستطيع بحيلةٍ ... يعالج من داءين ما منهما بدُّ

الفصل الثلاثون

« اشترى بالأزمنة تتفرجي »

وصل فريد وابراهيم الى السويس فقابلهما الاقارب والاصدقاء بالترحيب واحسنوا وفادة ابراهيم ورحبوا بهِ فقضى يوم مقدمهِ في أتمّ انشراح وانبساط وصار يقابلُ الوفود من اقارب فريد ويزن كلاً منهما بميزان حكمتهِ ويسبر غوره بصائب رأيهِ بينما كان فريد في الدار يقبل يدي والدتهِ ويسلم على باقي افراد عائلتهِ وقريباتهِ وبالجملة خالته وابنتها ثم عاد الى مجلس الرجال وهو يفضّلُ اسيوط وبناتها على السويس وفتياتها

وفي اليوم الثاني فاتحهُ عمهُ في زواجه ووصية ابيه وذكر له ما عرفهُ من والدتهِ ومحاولته مخالفة تلك الوصية المقدسة التي خرجت من فم ابيه مع روحه الكريم وهي صاعدة الى السماء . . . فذرفت عينا فريد وانقبض صدره وهمَّ ان يجيب بالقبول ويرجع عن عزمه لولا ان تصور وحيدة وجزعها وتجسم امامه حزنها فاشفق عليها ورجع عن النطق بالاجابة ولزم الصمت ولما الحَّ عمه في سؤاله لم يزد على ان قال : سوف لا اخالف الوصية

وسألته امه مرة عن علاقته مع الاسيوطيين واتفق حينئذ دخول خالته فكان له وقع شديد ولكنه سرَّ به لانه اعفاه من الجواب ولولا دخولها لاسقط في يده

وكان يبلّغ ابراهيم كل هذه الملاحظات بوقتها فكان ذلك الصديق يأسف ويكاد يقنط من الفوز لصديقه بوحيدته

* * *

وجلس ابراهيم مرةً بجانب عزيز كبير اولاد عم فريد واخذ يحادثهُ في زواج فريد بابنة خالته وعما اذا كان يتم في هذه الاجازة او يُرجأ الى موعد قريب او بعيد

وما قصد ابراهيم بهذا السؤال الا ان يعلم عما يقال بين عائلة صديقه ويعرف عزمهم ويقف على قصدهم

ولاحظ ابراهيم ان عزيزاً لا يجيبه ببشر وغبطة كما كان يحادثهُ قبلاً بل قطّبَ جبينه وانحرف عنه بوجههِ فأسرّها ابراهيم في نفسه ولم يبدها له ثم اخذ يتساءل من نفسه عن معنى هذا الانحراف من عزيز هل لتذكره

وصية المرحوم عمه وخروجها من فيه عند وفاته فأثرت الذكرى فكاد ابراهيم يطيع هذا الظن في نفسه لولا ان رأى ما يمنعه من ذلك خصوصاً حينما اجابه عزيز عن سؤاله ولم يزد عن قوله لا أعلم

وجاء فريد بعد هنيهة فدار الحديث على غير هذا الموضوع وقام عزيز عنهما فلاحظ ابراهيم على هيئته اشياء اثبتت في فكره اموراً اراد تحقيقها من فريد فقال له :

— هل عزيز متزوج ؟

— لا

— اذاً قد صدق حدسي

— عجباً أو ماذا عساه ان يكون ؟

— لا شيء فدعني الآن اتمم الامر

— بالله ما هذا اللغز يا ابراهيم !

— لا شيء اتركني الآن .

— عجباً ! هل انت شرلوك هولمز الطائر الصيت في استطلاع الخبايا

— اجعلني هووكن وطسن صديقه فأطعني الآن واتركني كما كان يطيع وطسن صديقه شرلوك

— حسناً فليكن ما تريد ولكني اخاف ان لا يصادفنا الحظ السعيد الذي كان يخدمهما

— ظن بالله الجميل . وتفاءل بما جاء على لسانك من ذكر شرلوك فانه كان سعيداً

وكان فريد لا يرى في الامكان مخالفة وصية المرحوم والده واغضاب عمه وذويه الا اذا حصلت معجزة او ما ليس في الحسبان فكان يستغرب كلام ابراهيم وماذا عساه ان يكون قد رأى واي امر ينتظر تمامه خصوصاً وهو لا يختلط بغير الرجال من عائلته ولا يظن فيهم من يطلعه على خباياهم لانهم لا يعلمون من امره الا كونه احد اصدقاء فريد جاء معه للرياضة في السويس اما ابراهيم فظل يومين لا يفاتح عزيزاً في شيء ثم اظهر له رغبته في زيارة القنال ومشاهدة الحوض فلباه واجتهد ابراهيم ان لا يكون معهما ثالث لحاجة في نفسه

وكان من ذلك اليوم الذي حادثه فيه عن زواج فريد ورأى منه الامتعاض يظهر له التودد والاخلاص فمال عزيز اليه وبادله الوداد

ولاحظ ابراهيم ذلك منه فسرَّ غاية السرور لما كان يؤمله من وراء هذه المودة

ولاحظ ايضاً انه لا يزال كلما يُسمعه ذكرى زواج فريد بابنة خالتهِ تنقبض نفسه ويستبدل الحديث بغيره على قدر امكانه

فلما كانا بالقنال وقضيا حظهما من المشاهدة والتأمل الطويل في ذلك المجرى الكبير الهائل وتذكر ابراهيم ما كان في عزم العرب في اول فتحهم مصر من شق هذه المجرى وما يستخرجه الاوربي من دقائق افكارهم وينشره اليوم مدعياً انه من بنات فكره واختراعه كما هو دأبه في كل امر وما كان حظ مصر من هذا القنال وضياع اسمه من يدها وامتلاك الاجانب له كادت الذكرى تطير بقلبه لولا ان هتف به الخاطر

« اشتدي يا ازمة تنفرجي »

وكان هذا الهاتف مشجعاً لابراهيم ومسبباً لاقدامه على ما هو فيه ايضاً وبادله الحديث الى ان قال

— علمت منذ عهد قريب يا عزيزي انك غير متزوج فلماذا لا تطلب يد شقيقة عروس ابن عمك فريد وتنتهز الفرصة ليكون الاحتفال واحداً تقليلاً للنفقة .. وكان ابراهيم في الحقيقة لا يعلم هل لعروس فريد شقيقة ام لا الا انه لم يجد وسيلة يفتح بها الحديث ويلجئ عزيزاً للجواب الا بهذا السؤال وما كان مخطئاً في فكره لان عزيزاً كان في الامر مضطراً لاجابته من جهة ولانه انتهز هذه الفرصة ليبث له شيئاً في نفسه من جهة اخرى فقال

— ليس يا أخي لعروس فريد من شقيقة اختارها بل هي وصيرة

فقال ابراهيم في نفسه نعم الفأل فان شاء الله تكون وصيرة .. ولكل من عزيز وابراهيم قصد في الاسم كما لا يخفى على القارئ اللبيب واستمر عزيز في حديثه قائلاً :

— ومع ذلك فاني لا اريد الزواج الآن ....

— ولماذا وانت شاب في مقتبل العمر وليس من عاداتنا نحن المصريين التساهل في هذا الامر الاجتماعي العمراني الذي لا بد منه وانه لامر حسن جداً

— نعم ولست أريد بقولي اني اكره الزواج وانما اعني ان دونه الآن مانعاً شديداً

— كل مانع يزول وليس من شيء مستحيلاً في هذا الزمن

— أنا لا اعتقد بالمستحيل الا في هذا الامر فقط

— كيف ذلك ايها الاخ ؟ اخبرني عنه وأنا أذلل لك الصعاب

— انت نعم الصديق ولكنك لا تحلُّ هذا المشكل لانه ليس من مصلحة صديقك . . .

وهنا سقطت من عيني عزيز دمعتان وغص بريقه وسكت . ولم يخفَ امرُهُ على ابراهيم ففرح واستبشر وسُرَّ لان سعيهُ سيكون لمصلحة الاثنين معاً ولكنهُ كان يرتعد خوفاً من ان تكون العروس لا ترضاه وترضى فريداً فيسيء اليها . فكانت هذه الفكرة عقبة كؤوداً في سبيل مسعاه غير انه لم يحفل بها واراد تحقيقها لامر خطر على باله . فالتفت الى عزيز وكان قد هدأ روعهُ فقال له :

أظنك تعني فريداً كما اظنك ترى المستحيل في زواجك لاجله . . فاعلم يا عزيزي انك اذا اردت شيئاً فيه مرضاتك فلا يتأخر فريد ان يتنحى عنه وأنا الكفيل بذلك والضامن لحصوله فأفصح عما يكنهُ ضميرك وارفع نقاب هذه الالغاز واعرضها عليّ ثم دعني أدبر لك الامر بعون الله .

وكان عزيز في شدة الارتباك والحيرة غارقاً في بحر الهموم لا يدري كيف يخرج منه . ومن عادة الغريق ان يتمسك بالخيال ويظن ارجل العنكبوت حبالاً يصعد عليها الى بر النجاة والسلامة فلما رأى البائس ابراهيم يعده بالفوز ويضمن له المصلحة وكان يهوى عزيزة ابنة خالة فريد ويحبها حبًّا شديداً ولا يجسر على طلبها لنفسه لما يعلمهُ من امر الوصية

وخطبتها لابن عمهِ فريد . . . وكانت عزيزة تبادله الحب القلبي الطاهر خلسةً وتسمع كلام ذويها في امر خطبتها لابن خالتها وترتعد كلما تتذكر وصية المرحوم زوج خالتها والد فريد وتصرُّ على اسنانها غيظاً حينما ترى من والدتها التصميم على زواجها بفريد ومحافظتها على الوصية وكانت البائسة تذعن لكل هذه المصائب وتئن تحت هذه الاحمال الثقيلة ولا تشتكي وطالما قالت : « اشتدي يا أزمة تنفرجي »

نحن لاندري ما كان يدور في خلد عزيزة وعزيز وما قررا عمله تخلصاً من هذه الورطة ولكنهما لو كانا في اوروبا او في هذا العصر في نفس مصر لأعلنت عزيزة عصيانها لآلهما وطاعتها لقلبها وهواها ملبيةً داعي الحرية والاستقلال بالفكر والنشوز؛ الذي انتشر اليوم بين كل الطبقات

ولكنهما كانا في زمن يعدُّ فيه من العار والشين ان تسأل الفتاة اهلها سؤالاً بسيطاً تشم منه رائحة عن خطيبها فكان عزيز يبادل عزيزة رسائل الوداد ولا يغفل مرة عن تذكيرها بالصبر واخفاء الجزع

وارسل لها في نفس اليوم الذي ذهب فيه مع ابراهيم الى القنال كتاباً مع رسولهما الامين الذي كان الواسطة الوحيدة في ايصال الرسائل بينهما فجاءه الرد منها تظهر فيه جزعها الذي تزايد وخوفها الذي تعاظم وصبرها الذي نفد

فأوجس عزيز في نفسه خيفة على حبيبته واشفق على قلبها وتمثلت له الدنيا بعوضة يمكن قتلها في سبيل سلامة عزيزتهِ ومرضاتها فكان ذلك حاملاً له على افشاء سره لابراهيم بعد ان كان في عزمه المحافظة عليه حتى

يقضي الله امراً كان مفعولاً فالتفت اليه وقال له :

— اعلم يا صديقي ابراهيم اني لا اقول لك ماسأقوله الا بعد ان تحققت صدق ولائك وصحة ضمانك . وكنتُ عازماً على حفظ الذي سأفشيه لك الى الابد مفضّلاً الموت حزناً وكمداً على الوقوف في سبيل عمل يسعى والدي في تتميمه وتود عائلتنا على بكرة ابيها حصوله تنفيذاً لوصية المرحوم عمي تغمده الله برحمته وقدس روحهُ . وما كنتُ لأكون الوحيد الذي يرضى مخالفة هذه الوصية المقدسة لولا ان رأيت فيها حياة روحين طاهرتين روحي وروح عزيزة خطيبة فريد . بل أنا لا أود المخالفة ولا ارضاها وكان عزمي اكيد أن لا اقف عقبة في سبيلها وما زلت كذلك وسأستمر عليه ان رجعتَ انت عن ضمانك وتخليتَ عني . واعلم ان المأسوف عليه عمي لو كان حيًّا وعلم بالحب الشديد المتبادل بيني وبين عزيزة لأغفل وصيتهُ وسعى هو نفسهُ الى زواجي بها اذ لم تكن وصيتهُ رحمة الله عليه الا رغبة في سعادة عزيزة التي يحبها ويحلها محل ابنتهِ وهو ليس له بنات وبالجملة فاني الآن اظهرت لك كل شيء ودونك دليلاً حديثاً هو ابن اليوم على صدق ما اقوله لك من حبها الشديد لي . وناولهُ جواب عزيزة الذي وصله منها قبل قيامه للقتال فقرأه ابراهيم وطلب اليه ان يبقيهُ معه فتركه له . وبعد ان رسما طريقة العمل رجعا الى السويس وابراهيم يكاد يطير فرحاً ويرقص طرباً لقرب انفراج الأزمة

الفصل الحادي والثلاثون

« أموت أم حياة ؟ »

تركنا وحيدة تلك الفتاة الجميلة اللطيفة التي يصح لنا ان نسميها ملاكاً من غير اثم ولا حرج في معمعان الهمّ وميدان الكدر والحزن تشاركها والدتها في الدموع والبكاء ويشاطرها والدها الفكر والترح.

تركناها ولا معين لها الا الله على احتمال ما داهمها واعظم مصائب الفتيات تركهنّ لمن اخترنه والقينَ عليه الامل خصوصاً اذا كان بمنزلة فريد من وحيدة وهنّ لا يلقينَ املهنّ على واحد لم يوحِ به اليهنّ من سماء الغرام وعرش الهوى والهيام. تركناها ولا قدرة لوالدها على تعزيتها ولا قوة له على تسليتها بل كان هو احق بالتسلية على ما اصاب ابنته واحزنها. وكان المسكين كلما رآها تذبل يصفر فرقا وخوفاً وظل طويلاً لا تقع عينه عليها الا باكية او رطبة الاجفان او محمرة العينين فكان يذوب حزناً ويرتجف جزعاً

تركناها ووالدتها لا تستطيع ان تفاتحها في امر الصبر او تلفظ امامها كلمة النسيان بل كان غاية استطاعتها ان تجيبها على النحيب بالنحيب وعلى البكاء بالبكاء .. ولنذهب الآن بالفكر الى منزل صادق في اسيوط ....

عجباً ! ما هؤلاء السيدات؟ الداخلات منزل صادق!! ما الذي حدث ؟.. ليت شعري هل مات عنده احد ؟ .... سر غامض !! هل يئست وحيدة من حبيبها فانتحرت تخلصاً من عذاب الهوى والغرام ؟ ! ام طال

مطاله عليها فاشتد مرض انتظارها فاعتل جسمها فماتت شهيدة الحب والهيام ؟ ؟ لله انت ايها العشق ما اقسى فؤادك . واصعب حكمك . ألم تشفق على شبابها ؟ ألم ترأف بأهلها ؟ هلاّ نَهاك نُهاك عن مدّ يدك الحديدية اليها ؟ هلاّ بُعثت الى قلبك الرحمة عليها ؟ ألم ترحم صباها ؟ انك ظلمتها . وما انصفتها

وأنت يا موت يا موت كيف طاوعت الهوى على ظلمه ؟ واعنته على تنفيذ حكمه !؟ ألم يقم لك دليل من صفاء قلبها على براءتها ؟ ألم يتمثل امامك ؟ ألم تهرب من امامك ؟ ألم تصرخ من قدومك ؟ أم فرحت بك ! ووقفت بين يديك ! واسلمتك الروح طائعة منشرحة الصدر لتخلص من مرارة هذه الحياة الدنيا وتتخلص من أسر هذا الغرام .... واظنها اوصتك يا موت ان لاتمس حبيبها فريداً بسوء . وحملتك اليه تحيتها الاخيرة ووداعها الابدي .... فالى الجنة يا وحيدة . وفي النعيم شبابك الغض وجمالك الباهي الباهر .... ما هذا الوجه المصفر . والجبين المصفر . بعد الزهاء والبهاء ؟ ! وما هذا الثغر الباسم ؟ ! .... ألا في سبيل الله روحك الزكية . وفي سبيل الغرام حياتك وصباكِ

* * *

تلك هواجس جاشت بالخاطر عند رؤية جموع السيدات يدخلن افواجاً وما كان ليخطر بالبال غير ما تقدم لما نعلمه من رقة قلب وحيدة ولطف شعورها غير اننا لم نسأل متى توفيت فلنتقدم قليلا الى المنزل لنعلم الحقيقة .. عجباً ! ما لهؤلاء الرجال مكتظين في غرفة الاستقبال ؟ انها

توفيت حقيقة وهم ينتظرون الاحتفال بدفنها ؟ عجباً ! ان صادقاً يضحك عالياً . . . . هل تجرع الصبر على مصيبته ؟ فسبحانك اللهم سبحانك تلهم الصبر على قدر الرزيئة . . . ام مس عقله خبال فهو يضحك من الجنون ؟ عجباً ! ان كاسات الشراب واطباق الحلوى تدور على الجموع والبشر باد على الوجوه والافواه . والثنايا ظاهرة من اثر الابتسام . فهل شفيت وحيدة من غرامها وسلمت فهو يحتفل فرحاً بسلامتها وشفائها ؟ ام يحتفل القوم بعقد قرانها على احد الاسيوطيين فاننا لا نرى فريداً بينهم ولا ابراهيم لنظن انه يعقد لها على حبيبها الاول كما كان في تلك الليلة المشؤومة التي سبيت كل هذه الدواهي والرزايا . فهل رضيت وحيدة غير فريد وقبلت سواه وهو حيٌّ يرزق ؟ هل ظنّت التعسة ان ذهاب ابراهيم الى السويس كان لحضور الاحتفال بزواج فريد بغيرها فحسنت لها الغيرة الزواج بغيره تشفياً ومقابلةً للمثل بالمثل ؟

لا حول ولا قوة الا بالله ! تسرعت البائسة وظنّت بحبيبها السوء . فكيف بها لو جاء بعد قليل يطلبها وهي في احضان زوجها الجديد ! ! هل تنتحر انتقاماً من نفسها لقبولها غيره قبل ان يعلنها بتركه لها ؟ ام تقبله خلسة وهي الطاهرة الشريفة من الدنس التي نعيذها من كل سوء ! تالله انها لحيرة وارتباك شديدان ! !

* * *

ما هذه الافكار الرديئة التي احاطتنا . وما هذه المخاوف التي احاقت بنا ونحن من بعيد لم تتحقق الامر ! فلندخل غرفة الاستقبال ونجلس بين

القوم وتحرّى الامر لنعلم علم اليقين ونكشف الحقيقة

ماذا نسمع ! نغمة فرح ورنة سرور . يذكر القوم اسم فريد مقروناً باسم ابراهيم . ان هذا لشيء عجاب ! هل يرمونهما بالسوء ويسخطون عليهما ؟ لا . اسمع . اسمع . ها أحدهم يطنب في مدح فريد ويشكره . وها آخر يسأل عن يوم حضوره . فما هذا الحال . امر عجيب ! هل يحضر فريد الى اسيوط ؟ اذاً ليس هذا الاجتماع لحزن ولا لتشييع جنازة . اذاً وحيدة على قيد الحياة . . إصغَ . إصغَ . ها صادق يجيب السائل عن حضور فريد . وها هو يقول ان فريداً ارسل لي خطاباً بحضوره في هذا اليوم على قطار بعد الظهر وانه يريد استعدادنا للعقد حال وصوله حيث يريد السفر بعد الاحتفال الى اصوان لبعض شؤونه هناك الى ان نستعد للزفاف فيحضر . وقد دعوتكم لمشاركتنا فننسى حادث تلك الليلة الذي شاركتمونا فيه . ولقد ارسل فريد اليوم على لسان البرق بمغادرته القاهرة الينا مع ابراهيم وبعض ذويه ولا يلبث الآن ان يحضر وقد ذهب جورج وسليم لاستقباله

الحمد لله زال العناء وانقشع الهم . وعوّض الله وحيدتنا الخير جزاء صبرها وصدَقَ وعدهُ الذي وعده للصابرين . فانعمي بالاً وقرّي عيناً أيتها الفتاة الشريفة الطاهرة

انكِ الآن يا وحيدة بلا شك تمرحين وتضحكين . يرقص قلبك فرحاً ويهتز فؤادكِ سروراً . ولأنتِ خليقة بكل هناء وخير . ولأنتِ التي تستحق كل اعتبار وتعظيم . ولأنتِ التي نالت من القلوب كل احترام وتكريم

بئست الهواجس التي هجست . والافكار الرديئة التي مرّت علينا فسامحينا فيما ظنناه واعفي عما اجترمناه

الفصل الثاني والثلاثون

« ثمرة الصبر الجميل »

كانت حوادث الفصل الاسبق ومهارة ابراهيم في استكشافها سبباً لحياة نفوس اربعةٍ عزيز وعزيزة وفريد ووحيدة وبذلك تمّ عقد زواج الاوّلين والاحتفال بزفافهما وحضرهُ بالسويس . ثم تمّ له ايضاً أن يرجع بفريد الى اسيوط ظافراً واتفق معه بعد استحسان عمهِ أن يكتبا الى صادق بالاستعداد للعقد في يوم الاثنين من شهر يونيو الجاري حيث يحضرون جميعاً في ذلك اليوم فيجدون الحفلة على استعداد تام بحضور الاصحاب والاقران مما شاهدناه في الفصل السابق

وحضر فريد وعمهُ واخوته ووالدته وخالتهُ وبعض اقاربه وقريباته ومعهم ابراهيم حيث استقبلهم على رصيف المحطة جورج ومعه سليم فيمم الجميع منزل صادق وتمّ العقدُ ذلك اليوم وارتبط الحبيبان برباط شرعي متين طالما تمنياهُ وكثيراً ما شربا العذاب ألواناً في انتظار ثمرة الصبر الجميل

وكان لدخولهم المنزل رنة فرح في قلوبهم وأفئدة وحيدة ووالديها وذويها وبعد تمام الامر هنأ الاحباب فريداً وصادقاً وخرج الجمع يثني عليهما ثناء جميلاً . . .

وتحدث الاسيوطيون ببهاء ذلك اليوم وعظم الاحتفال وحسن رونقه مما لا نطيل فيه تخفيفاً على نفس القارئ الكريم

وكان يوماً من اعظم الايام واسعدها في حياة ابراهيم ذاك الصديق المخلص الذي قلّ ان يكون له نظير والذي كان اكبر معين لصاحبه فريد فهكذا يكون الصديق وهكذا يكون الاخلاص والرابطة الاخوية المتينة التي نتمناها بين جميع افراد الامة ونود من صميم فؤادنا ان تتأصل في افئدتهم ليتعاونوا على البر والتقوى ويكونوا على شاكلة ابراهيم وفريد يحب الواحد منهما الخير لاخيه كما يحبه لنفسه

وتقابلت والدة فريد وخالته والسيدات قريباته اللاتي حضرنَ معه بوحيدة فاعجبتهنّ واعجبنَ بجمالها الفتان وقدها الممشوق وخصرها النحيل وعينيها النجلاوين . وقابلتهنّ والدتها فاحسنت مقابلتهنّ

وكانت خالة فريد مسرورة بها لاتحسدها على فريد ولا تمقتها لانفرادها به دون ابنتها بل كانت تتمنى لها الهناء الدائم والسرور المقيم عن طيب نفس وحسن نية لما علمته من حبها الشديد الخالص الطاهر لفريد خصوصاً بعد ما تم قران ابنتها بعزيز بعد علمها بحب احدهما للآخر . فكانت تحمد الله دائماً على ما تم من نجاة هذه الانفس الشريفة

ولم تلبس وحيدة في هذا اليوم مشدها بل كانت شديدة التحفظ ولم تشر عليها واحدة من النساء بشده كما اشرن عليها اولاً

وسافر فريد وعمه ووالدته وخالته وبعض اقاربه وقريباته الى اصوان للنزهة ومشاهدة الآثار القديمة والشلالات وصحبهم ابراهيم في هذه

السياحة العلمية المفيدة التي يندر من يذهب اليها من المصريين الكسالى ويقدرها الاوربي قدراً عظيماً فيقصدها من بلاده ويصرف عليها امواله فشتان بين عالم وجاهل . اللهمَّ متعنا بالعلم ونوره

وظل في اسيوط بقية اقارب فريد فكانوا يجولون في انحاء المدينة الآهلة . الرجال برفقة صادق واخوانه والنساء مع وحيدة ووالدتها وحرم ابراهيم واخواته وكنَّ احياناً يبتنَ في منزل صادق وطوراً في دار ابراهيم

وصادق في تلك الاثناء يتهيأ للاحتفال بالزفاف حتى اذا اتم معداته ارسل كتاباً الى فريد واستأذن هذا في اطالة اجازته فاطيلت ورجعوا الى اسيوط فقرروا ميعاد الزفاف ووضعوا برنامج الاحتفال فكان ابراهيم رئيسه ومديره ودعوا الخلان والمعارف والاعيان والحكام من اسيوط واصوان والسويس والقاهرة . ودوت مدينة الاسيوطيين دوياً شديداً ردد صداه الجبل هناك ورنت نغمته في صدورهم فكانت ليلتهُ باهرة زاهرة والاحتفال مما يلام عليه اصحابه لدلالته على كثرة الاسراف غير انهم يعذرون اذ يجارون افراد امتهم ويخشون قوارص السنتهم اذا مالوا الى الاقتصاد فهل يأتي يوم نرى هذه الافراح في وسط الاعتدال بعيدة عن حد السرف والتبذير . وان كان من يريد الشهرة وبُعد الصيت فليهب ما يستطيع من المال لبعض الجمعيات الخيرية وفي وجوه الاحسان فما يمدح الانسان الا بهذه الاعمال الحسان لا بكثرة الطبول والاعلام والمصابيح . .

وهكذا تم الامر لفريد ووحيدة وحظيا بعضهما ببعض وتقابلا على رغم الزمان

فما هو الا ان يراها فجأة فيبهت لا عُرْف لديه ولا نكر

واما هي فقد سكرت بحلاوة هذا القران فلم تجد ما تبديه لفريد الا الابتسام فهنيئاً لكما ايها العاشقان المستحقان ما انتما فيه

ادام الله ايام الوصال وخلد عمرَ هاتيك الليالي
واسبغ ظل اغصان التداني وزاد قدودها حسن اعتدال
ولا زالت ثمار الانس فيها تزيد لطافة في كل حال

الفصل الثالث والثلاثون

« عبث الحبيبين »

تم الزفاف بسلام وقر قرار الحبيبين فحمدا الله على ماوهبهما من النعيم والهناء واخذا يتصفحان كتاب الماضي ويقرآن حوادثه فكان لديهما اثمن كتاب وألذ حديث وألطف فكاهة فلم يكن لهما شغل غيره حيناً من الدهر

وكانت وحيدة تسرد على فريد اخبار احزانها وتصف له انواع اهوالها التي مرت عليها بسببه خصوصاً في الايام الاخيرة وبالاخص يوم ورود الخطاب من ابراهيم وهو في السويس لوالدها وما خالج ضميرها من سوء الظن به عند وروده

ولم يخفِ فريد عنها شيئاً فأخبرها بجميع احواله وفصّل لها سبب سفره مع ابراهيم الى السويس واعلمها بوصية والده وما كان عليه عزمه اولاً وما اكتشفه ابراهيم فخدمها به خدمة جليلة كانت السبب في نجاة روحَي عزيزة وعزيز ايضاً

وكانت وحيدة تترنم بالثناء على اخلاص ابراهيم لقرينها فزاد ثناؤها عليه حين اخبرها فريد بما تقدم وكانت تتمنى الراحة والهناء للحبيبين عزيز وعزيزة . ولا جرم فالمحب اشفق على امثاله من غيره والعاشق يود سعادة العاشقين اخوانه فيسعد هو الآخر في جملتهم

وجاءت القابلة التي ذكرناها في الفصول السابقة وهي التي كانت رسول فريد الى وحيدة والتي كان على يديها التعارف والتي سعت في الاجتماع على شاطئ النيل والتي كانت كحمام الزاجل تقوم بالكتب من الحمراء من منزل فريد ايام كان في اسيوط وتهبط في قلب المدينة حيث منزل صادق . حينما سمعت بقدوم فريد للعقد وكانت لا تقطع زياراتها عن وحيدة وطالما كانت العزاء الوحيد لها فشاركتها في سرورها كما شاطرتها اكدارها والحق يقال ان وحيدة لم تبخسها حقها بل قامت بالواجب نحوها ولم يغفل عنها فريد فكان لها منهما نصيب اكبر من نصيبها من والدي وحيدة ووالدة فريد ولم يقطع فريد زياراته عن ابراهيم بل كان لا يهدأ له بال الا ان قابله كل يوم وكان صادق يرافقهما احياناً فيخبرانه بما صادفهما في السويس وما كان امامهما من العقبات التي زللت

ورجع عم فريد وخالته وجميع من حضر معه الى السويس الا والدته وكانوا جميعاً في فرح زائد وابتهاج عظيم لما لاقوه من حفاوة الاسيوطيين بهم واكرامهم اياهم وتبجيل صادق وذويه لهم

وانقضت اجازة فريد فاعلن يوم سفره الى اصوان مصحوباً بقرينته ووالدته فكان يوم سفرهم اشد الايام واعسرها على قلب والدة وحيدة

فاذرفت الدمع مدراراً على فراق ابنتها التي لم تتعوده وبكت وحيدة ايضاً لفراق بيتها الاول

ولم يكن بكاء وحيدة لان والدتها لم تشأ ان تسافر معها او لان والدها منع والدتها عن السفر فتصورت انهما لا يودان مرافقتها هما الاثنان تقليلاً للنفقة من اجلها او ان والدتها لا تحبها كثيراً فتأخرت عن مصاحبتها بل كانت ارفع من ان تسيء الظن بوالديها وانما عرفت السبب وتحققت ما أخر والدتها من مرافقتها وكان مرض خفيف ألمّ بصحتها عقب ما توالى عليها من الهموم الكثيرة ثم متاعب الاحتفالات الشديدة . لذلك كان بكاء وحيدة شديداً من عاملين عامل ذكرى ايامها مع والدتها وجلوسها بقربها ومشاركتها لها في احزانها الاخيرة وليلة دخولها عليها في غرفة نومها ومشاطرتها بكاءها اذ ذاك وعلى الاخص يوم ورود كتاب ابراهيم من السويس والايام التي تلتهُ . وذكرى هذا المرض وما عساه ان يُحدث وكيف تتركها مريضة وتسافر مع فريد ليجنيا عسل القرب والهناء وما عسى والدتها ان تظن بها

وتأكدت وحيدة محبة الوالدين لاولادهم وتعجبت كثيراً كيف كان والداها يساعدانها ويبكيان معها وهما عالمان انه حينما يحصل لها مرادها الذي يبكيان معها من اجله يحصل فراقها ويرجع البكاء بسببه . فقالت لنفسها انهما لا يحبانني كحبي لفريد اذ لو كانا كذلك لما سعيا في زواجي به وهما يعلمان انه سيبعدني عنهما فلو تمثلت لي الدنيا ذهباً على ان اتنازل الآن عن فريد لحظة واحدة لما سمحت نفسي

بلى يا وحيدة . صدقت ايتها الملاك الطاهر المحب لحبيبه هو كذلك كما تقولين ولكن اعلمي ان ذلك انما هو لكثرة حبك وشدة غرامك بفريد ذاك الحب الطاهر الذي نشكرك عليه ونتباهى بك وبعواطفك الشريفة من اجله . غير ان هذا الحب مهما اشتد وعظم وخلص لا يبلغ مبلغ حب الوالدين لولدهما فذاك مقصور على حب الذات والاثرة بالنفع والهناء في دائرة محصورة وهذا مطلق السراح يدور حول منفعة وسعادة الولد ولو جاء من مركز النفع ضرر الوالدين ...

ورافق صادق وحيدته الى كناسها الجديد في اصوان فلما وصل الفى الدار رحيبة وقد فرشها خدم فريد تحت رعاية اصدقائه الذين تفضلوا بمجاملته في ذلك . فسرّ صادقاً موقع المنزل وحسن ترتيبه ومكث اياماً عديدة ثم عاد الى اسيوط فجددت وحيدة يوم سفره دموعاً الا انه لم يقابلها بمثلها ولا ابدى لها جزعه على فراقها بل اخذ ينصحها ويبث لها كلمات ذهبية في موضوع معاشرتها لزوجها والتفاتها لراحته مما لو اتبعته كل فتاة لضمن لها السعادة التامة والهناء المقيم

وظل فريد ووالدته وغزاله في سرور وغبطة لا يقلقهم صوت ولا يحزنهم كارث ووحيدة تبدي الاحترام لحماتها والاخيرة تبدي التودد لكنتها مما جعل اكثر نساء اصوان يظنونهما والدة وولد فلم يكن احسن من عيشهما واسعد من عشرتهما وكثيراً ما خرجت والدة فريد مع كنتها الى شاطئ النيل والرياض وكثيراً ما ذهبتا مع فريد لمشاهدة الاثار القديمة وذهبوا مرة الى الشلال فكانوا اشبه بسرب من الطير الاليفة لا يفارق

احدها الآخر

ولم تنقطع مراسلات صادق وابراهيم واصحابه العديدين من مصر واسيوط والسويس وغيرها فكانت تصل الى فريد تباعاً فيرد عليها رداً جميلاً . ولم يكن يخفيها عن وحيدة بل ربما تركها لها تفضها ويتلذذ بسماع صوتها الرخيم في تلاوتها عليه . ولم تكن وحيدة لتجهل الاداب والعادات اللطيفة وهي العاقلة التي تلقت أدب العائلات والواجبات القومية فكانت لا تفتح خطاباً الا اذا اذن لها فريد ولم تكن كفتيات اليوم يذهبنَ الى المدرسة ليتعلمنَ القراءة والكتابة والرطانة والموسيقى والرقص الاوربي والعادات الغربية بانواعها وشرب الخمور ويهجرنَ العادات الحميدة بل يستقبحنها وقد يستهجن دينهن . . بل كانت متعلمة التعليم الواجب للبنات عالمة بتدبير المنزل والاعمال اليدوية والتطريز الشرقي والغربي معاً فلم تجدها في الدار الا مشغولة فيما تزين به جدران غرفها وتغطي به طاولاتها وتوفر به عن زوجها نفقته او بين الخدم تلاحظ الطبخ والعجن وترتيب المائدة وربما طبخت بيديها

الفصل الرابع والثلاثون

« ثمرة الحب »

ذهبت وحيدة الى اصوان ودخلت بيتاً جديداً لم تدخله في حياتها وما كان دخولها في البيت بالامر الذي يدهشها بل كانت دهشتها لما امامها من مظاهر حياتها الجديدة التي لم تمرن عليها ولم تعرف منها

الا ما قرأته في كتبها المدرسية وما تلقته عن والدتها من النصائح والوصايا وما يجب عمله وكيفية هذه الحياة . ولكنها كانت تعرف ان ما في تلك الكتب وما سمعته من الاقوال هو غير المعاشرة والاعمال في نفس المنزل والعيش في الوسط الجديد وقد أتت بثاقب حكمتها بما كان منتظراً منها ومن امثالها فوفت بالمرام وارضت كلاً بما يرضيهِ وهي حكمة بالغة

* * *

مضى بعد ذلك حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً واصبحت وحيدة ذات صباح ثقيلة الاجفان متراخية الاعصاب تشعر بغثيان وكسل وميل الى ملازمة الفراش فعلمت انها مريضة او متوعكة المزاج قليلاً . ولكنها لم تخالف عادتها في القيام مبكرةً خوفاً على قرينها ان يشتغل باله عليها فجهزته الى ان خرج لاشغاله وقابلت والدته مقابلة الصباح كعادتها ثم رجعت الى غرفتها فلازمت فراشها ولكنها لم تنم ولم تجد راحةً . . . وجاءت حماتها فوجدت حرارة جسمها مرتفعة قليلاً فسكنت بالها وجلست بجانبها مهمومة حتى جاء فريد فسمع الخبر فاسرع نحوها وفحصها فحصاً دقيقاً فلم يجد ما يخافهُ فزاد في تطمينها ولم يقل غير انها تعرضت للبرد واشار بمسهل وقام فأحضره وهمَّ باعطائه لها لو لم يرجعه عن ذلك فكر طرأ على باله

وأرجع فريد المسهل الى دولاب ادويتهِ ورجع فجلس بجانب قرينته وعلائم البشر والسرور والابتهاج تلوح على وجههِ فأخذ يدها بين كفيهِ وصار يفركها بخفة ولطافة ويحادثها ويسألها عما يؤلمها وتشعر به وهي تجيبه وتشخص له الالم وهو يبتسم واخيراً قهقه عالياً ورفع احدى يديهِ وأنزلها

على يدها مازحاً ثم قال هو بلا شك نفس ما ظننتُ فهنيئاً لكِ يا وحيدة . فعجبت القرينة والوالدة من قوله واستغربتا ذلك منهُ غير انه لم يتركهما طويلاً في استغرابهما بل تداركهما بقوله وهو يلتفت نحو والدتهِ : ان ما بها ياوالدتي اعراض حمل وأؤكده لكِ يا وحيدة والتفت اليها متبسماً فاحمرَّ وجهها حياء . وخفق قلبها سروراً لانها كانت قد شعرت منذ مدة بنقص سعادتها نقصاناً بيّناً لعدم وجود طفل من ثمرة احشائها الى جانبها تضمهُ وتناغيهِ واغتمت لذلك واذا بها الآن تسمع من زوجها البشرى بقرب زوال الغم . وأما والدة فريد فقد ظهر البشر على وجهها وقامت الى وحيدة فقبلتها وتبادل الثلاثة السرور والابتهاج بنعمة الله

وبعد اشهر إذ تحققوا الحمل ارسلوا لصادق بالنبإ فكان عندهِ أسرّ خبراً وأحسن قيلاً . . وعزمت والدتها على السفر اليها قرب ميعاد الوضع لاحضارها الى اسيوط فيسطع نور المولود في منزلها وتؤدي بذلك عادة الوالدات على الاطلاق

ولما قرب الموعد سافرت مع صادق فمكثا اياماً ثم صحباها في العودة الى اسيوط

الفصل الخامس والثلاثون

« الجنين والجناية »

وجاءت وحيدة الى اسيوط فجاءت صاحباتها يزرنها وعائلة ابراهيم تسلم عليها وصار كل من رآها يعجب مما زاد عليها من جمال فوق جمال ولو

كانت متاعب الحمل بادية عليها

ووالى فريد مراسلاته فكانت ترسل اليه برد بعضها احياناً والبعض يرده والدها وبالجملة فقد اوحشت اصوان وآنست اسيوط . . وارسل فريد الى عمه وخالتهِ يهنئهما بابنة عزيز وعزيزة التي وُلدت حديثاً ويخبرهما بقرب الوضع عند قريبتـه فجاءه الرد باستعدادهما مع بعض اقاربه للحضور في اليوم السابع كما هي العادة

كذلك ارسل فريد الى اخوانه من اطباء اسيوط ان يرجوا طبيبة المدينة في ذهابها لمباشرة الوضع وكتب لهـا بنفسه خطاباً رقيق الحواشي فوافاه الرد باستعدادها لخدمته الودية

وما كان فريد ليقصد بحضور الطبيبة حرمان القابلة من المكافأة بل لانه لا يجهل جهل القوابل وما يسببنهُ من تعاسة النفساء وهو الامر الشائن والعيب الفاضح لمصلحة الصحة المصرية لانها يجب ان تلاحظهنَّ اكثر من ذلك ولو كنَّ الآن افضل منهنَّ في الماضي

وارسل فريد ايضاً الى صادق يخبره بما تم له مع الطبيبة وارسل اليه بجوابها لكي يذهب اليها وقت الطلب . وبالجملة اخذ فريد الحيطة في امره ورتب كل شيء وصـار ينتظر وهو في الشهر التاسع خبراً ليرسل والدتهُ ويبشر مَن في السويس

وكانت وحيدة كلما انتهى يوم من الشهر تزداد خوفاً من هول الامر وفرحاً بقرب اجتناء ثمرة حبها لفريد وهي عادةُ مَن لم تعتـد الامر ولا تعرف كيفية غير انفصال روح من روح . فسبحان الخلاق العظيم

وذات ليلة في آخر الشهر قامت وحيدة مذعورةً كأنما قد أصيبت بضربة حادة في جنبها . وشعرت والدتها بقيامها فأسرعت اليها وسألتها عما يؤلمها فعرفت انه المخاض فأيقظت والدها فاسرع بارسال خادم الى الطبيبة وآخر الى القابلة فحضرتا وظل هو لا يهوى جفنهُ النوم

واقبلت الخادمات الى غرفة سيدتهنَّ فصرفتهنَّ والدة وحيدة الاَ مَن لزمها منهنَّ فأحسنت بذلك صنعاً لئلا يفسدن هواء الغرفة بازدحامهن ويضيقن من انفاس النفساء . وحبذا لو اقتدى الغير بها في ذلك

وكان الفجر قريباً فلما بزغ الصباح ارسل بالبرق الى فريد فكان عنده أسرَّ الاخبار وارسل الى ابيها ان يخبره حال تمام الوضع وقال له ان والدتهُ ستقوم باكراً الى اسيوط وظل ينتظر خبراً بتمام الوضع بفارغ الصبر وأخذ باله يقلق على قرينتهِ ويشفق عليها

***

وقد سهل الله على وحيدة فلم ترَ العذاب الاليم والهول العظيم وما كانت تتصوره وتتوقع حصوله لها فانتهى الوضع بعد ثماني ساعات تقريباً على اتم حال وولدتهُ ذكراً جميلاً وسمعت صوتهُ تحتها لأوّل مرة فذهب نصبها وزال تعبها ونسيت كل ألم

واعتنت الطبيبة بصحة الوالدة والولد وراعتهما كثيراً حتى اذا اخذت وحيدة ابنها في احضانها بين ذراعيها واطبقت جفونها للنوم قامت على ان تعود بعد قليل

وسرى الخبر الى منزل ابراهيم فجاء وجاءت عائلتهُ تهنئُ وارسل ابراهيم

بالبرق تهنئتهُ لفريد كما فعل صادق فكان يوم وصولهما أسعد ايامه وارسل يشكرهما ويهنئ صادقاً ويبشر عمهُ في السويس

وجاءت والدة فريد فلم يقلّ فرحها عن فرح وحيدة ووالدتها بهذا المولود السعيد الذي رزقهما الله . وجاء عمُّ فريد وخالتهُ وبعض اقاربه ووعد هو بالحضور اليوم السابع واقترح ان يكون اسم المولود «نجيباً» فأقروه

ووردت الهدايا من نساء الاسيوطيين الى وحيدة واهدتها خالة فريد إطاراً من ذهب لتضع فيه صورة نجيب عند تصويره . واهدتها قريباته هدايا مختلفة النوع والقيمة تدل كلها على ما خالج افئدتهم من السرور والفرح بابن فريدهم . وكانت اثمن الهدايا التي جاءت لهذا المولود وافخرها هدايا جدتيه وقرينة ابراهيم واحدى اخواته

ومرت ايام خمسة وجاء اليوم السادس فتهيأن للاحتفال بصباح الغد وأخذنَ يعددنَ له الزخرف والزينة . وخرجت والدة وحيدة وخالة فريد وقرينة ابراهيم لدعوة السيدات لحضور « الاسبوع » كما هو عادتهنَّ . اما صادق فكان في عزمه ان يحتفل بالرجال ولكنه ارجأ ذلك الى ما بعد حضور فريد

واصبح اليوم السابع ورنين الفرح في المنزل يرن والسيدات يفدن فرادى وجماعات يشبهنَ حور العين كأنما هبطنَ من الجنان

وقامت وحيدة لتغيير ملابسها واتخاذ زخرفها وزينتها لتباري اترابها في ميدان التجمل والجمال وتفوز بقصب السبق عليهنَّ في مضمار البهاء والزهاء ولتكون على اهبة الاستعداد لمقابلة فريد وقد البست نجيباً حلة

صغيرة جميلة الشكل فاصبح كعصفور جميل اعدته هدية لقرينها تمد به يدها اليه بدل المصافحة والسلام

قامت وحيدة لزينتها فوقفت امام مرآتها وما ادراك ما وقفة المرأة امام المرآة

« اتخذت المرأة وجه مرآتها كفيلاً لها باظهار ما خفي عنها من جمالها الذي تعتمد عليه ومحاسنها التي هي حليتها وكمالها في كل مقام تكون فيه ؛ فكانت المرآة امين اسرارها ومرشد سيرها وهدى ابصارها ومشير زينتها والناصح المخلص لها في اصلاح ما نقص من محاسنها والدليل الهادي امامها الى بلوغ ما تتوخاه من كمال بهائها وحسن محياها فهي تكشف للمرآة ما لا تكشف لاحد في الدنيا من اسرار جمالها او نقائص تكوينها وتستشيرها في الذي لا يمكن ان تستشير فيه احداً سواها من لوازم حسنها ومتممات فتنتها وابداعها . ولقد يعجب الناظر منها بل لقد تعجب هي من نفسها لو تيسر لها مرآة ثانية تكشف لها ذلك الموقف الغريب حين تقف لدى مرآتها ساعات وهي جامدة الحركة مبهوتة الطرف تتأمل في وجهها وملامحها تأملاً طويلا ينتهي بها احياناً الى حد الدهشة والذهول حتى تنسى موقفها وتصيح من شدة اشتغالها بنفسها وهي لا تكاد تشعر بذلك الاشتغال . ثم تنتبه الى نفسها وتدير الحاظها في دقائق محاسنها وتنتقد ما يبدو لها من ملامح وجهها ثم تنقل طرفها في تقاطيع محياها وتنظر الى كل شيء وحده من تفاصيل طلعتها ثم تجمل ذلك النظر على كل وجهها ثم تنتقده باجماله بعد ان انتقدته بتفاصيله واجزائه . ثم تدير

نظرها في كل جسمها لترى هل ينطبق ذلك المجموع على تلك التفاصيل وهل تكون محاسن ذلك الاجمال موافقة لجمال تلك الاجزاء . ثم لا يكفيها ما يبدو لها من هيئة قوامها وهي واقفة امام المرآة حتى تريد ان تعلم ما يكون تأثير حركاتها واختلاف مناظرها على العيون والقلوب . فتخطر لدى مرآتها خطوات لترى كيف مشيتها وكيف اهتزاز قوامها وهل فيهما عيب فتصلحه او حسن فتبقى عليه . ثم تعرض بوجهها قليلاً وتنظر الى خيالها شزراً لترى هل تحلو نظرتها على تلك الصفة وهل يبقى وجهها جميلاً بذلك الاعراض . ثم تبسم قليلاً لترى كيف هيئة ابتسامها وانتظام ثغرها وهل تكون جميلة لو ابتسمت كذلك ام ينبغي ان تزيد في الابتسام . ثم تضحك بعد ذلك بملء فمها لتعلم كيف تكون ملامحها عند الضحك وهل يكبر فمها فيكون قبيحاً ام يزيدها الضحك لطفاً وجمالاً وبالتالي هل ينبغي ان تستره بيدها اذا اضطرت الى الضحك في مجلس ام ينبغي ان تضحك كثيراً لأقل حديث لكي تزيد في محاسن وجهها حسناً جديداً . ثم تنتقل الى تجريب عينيها وامتحان نظراتها كما يمتحن الرامي سهام كنانته وكما يجرب البطل مضارب سيفه وهناك الامتحان الطويل والبحث الدقيق ومجلى اسرار المحاسن ومظهر مكنونات الملاحة والجمال . فتنظر في مرآتها اولاً نظراً بسيطاً بلا كلفة ولا تعمد ثم تغزل بعينيها بعد ذلك كأنها تغازل احداً لديها لتعلم هل يخطئ ذلك الغزل ام يصيب . ثم تكسر اجفانها لترى تأثير ذلك الانكسار ثم تفتح مقلتيها وتجعل هيئة الضحك في عينيها لتنظر ما يكون لها من حسن الوقع في النفوس وشدة الفتك في القلوب . ثم تقطب

حاجبيها وتنظر في خيالها نظرةَ الكره والغضب ثم تنظر بعد ذلك نظرةَ المودة والرضى لترى كيف يكون تأثير النظرتين وتكون عالمة بهيئة وجهها فيهما اذا لم تكن لديها مرآة . ثم ترفع عينيها الى السماء ثم تخفضهما الى الارض ثم تديرهما من الجانبين لترى كيف تكون طلعتها في كل تلك الحالات . ثم تنظر اخيراً في ثوبها فتصلح ثناياه وفي حليّها فتسوّي مواضعها وتعدل انحرافها وفي مروحتها فترى كيف تتبرقع بها وكيف تليحها في يدها وفي حذائها فترى كيف يكون بروزه من تحت اثوابها وفي شعرها كيف اجتماعهُ على رأسها او كيف تهدله على كتفيها ثم في قوامها كلهِ فترى كيف تناسُبهُ واعتداله

تلك هي المرأةُ لدى مرآتها يحسبها الناظر اليها مجنونة وما بها من مس ولا لمم . وانما هي تتبع سنة الله التي خلقها عليها ومن يتبع سنة الله فما ظلم »(*)

وبعد هذه الوقفة امام المرآة خرجت وحيدة بحلتها الجميلة وحليتها الفاخرة كعروس الجنة فرّت من رضوان فأقبلت على المدعوّات ونورُ بهائها يسعى بين يديها فقمنَ لها وأقبلنَ عليها وأكبرنها وقلن « حاشَ للهِ ما هذا بشراً إنْ هذا الاّ ملك كريم »

فكانت مرجع الانظار ومرمى الابصار ومكثت بينهنّ اكثر من ساعتين تضحك وتلعب وتجيب على حجرها تنظر الى وجههِ من حين الى حين وافكارها في الطريق تجري بين اسيوط واصوان ولكن فريداً لم

(٥) المرحوم الشيخ نجيب الحداد فقيد الادب والبلاغة

يحضر بعدُ وأرسل يعتذر ويقول انه سيحضر بعد ايام

وأخذت السيدات في الاحتفال وبدأن بالمرطبات وكان الحرُّ في اسيوط شديداً وبعد ذلك اخذن يغنين ويطربن ولكن وحيدة لم تلتفت الى شيء من طربهن بل كان لها شغل آخر من صحتها فقد شعرت بمغص شديد في احشائها . وكأن يداً من حديد قبضت على صدرها وأحست بدم هطل عليها هالتها كثرتهُ فقامت الى غرفتها ووضعت طفلها في مهده وخلعت ثيابها ولم تتمكن من تغييرها حتى اسودَّ الضياء في عينيها وأظلمت الغرفة عليها وارتعشت شفتاها وبردت اطرافها ودارت رأسها وخرت الى الارض مغشياً عليها فكان لسقوطها هزة في ارض الغرفة نبهت الحاضرات فأسرعت خادمة لاكتشاف الساقط فوجدتهُ سيدتها فصرخت منتحبةً وهرولت السيدات فوجدنَ منظراً تقشعرُّ له الابدان وترجف منه قلوب الجبابرة رحمةً وحناناً

وتدارك الله والدة وحيدة فلم تصعقها الكارثة وأما صادق فما هو الا ان سمع الخبر حتى ارسل الى الطبيب فجاء . وكانت الطبيبة قد بذلت جهدها عبثاً وارادت إيقاف تيار الدم المتدفق فلم تفلح . . .

واسرع خادم الى ابراهيم فجاء مسرعاً يتعثر بأذيال الارتباك والقلق الى ان وصل الى المنزل فوجد الطبيب قد حضر وصعد الى المريضة فلما نزل بان لابراهيم الخطر من ملامح الطبيب وسأله فاخبره سرًّا بتمزيق الرحم وقوة النزيف « طبعاً » فاسرع لاستحضار اشهر الاطباء وأمهرهم فاجتمع منهم ثلاثة مع الطبيبة والطبيب الاول وقاموا بالمعالجة وهم يتعجبون من كثرة

الدماء وقوة دفعها وشدة تيارها ويستغربون تمزيق الرحم ولم يقفوا من وحيدة على السبب فقالوا انه نتيجة ضغط شديد أثر على الرحم فمزقهُ وان الخطر شديد

واستمر النزيف بين الشدة والضعف ووحيدة تفيق مرةً وتغيب عن حسها مراراً وقد ارتخت اعصابها وطال عليها العذاب فاصفر وجهها وصارت بجهد تفتح عينيها وترنو الى والدتها ووالدة حبيبها وتحوّل رأسها نحو مهد نجيب فتنظر الى نومهِ الهادئ وغفلته عما اصابها فتنحدر دموعها على خديها كالحباب او الدر المنظوم

وجاء المساء وذهبت جميع المدعوّات حزيناتٍ متأثراتٍ من هول الحادث وكلهنَّ دامعة اجفانهنَّ مرتجفة اعصابهنَّ وهكذا انقلب الفرح ترحاً فسبحان مقلّب الاحوال ومغير الاكوان وهو لا يتغير

ومضى يومان والحالة كما هي وعيل الصبر وانقطع الامل وقرر الاطباء اليأس فلم يرَ ابراهيم بدًّا من اخبار فريد وهو اعلم الناس بما سينتابهُ على من احبها اكثر من نفسه فأعلمهُ وكان المسكين في قلق لانقطاع الاخبار عنه فأُسقط في يده وكادت تصعقهُ ورقة التلغراف فلم يدرِ ماذا يصنع ؟ ثم افاق من الذهول وأحياه الامل والرجاء فأسرع الى القطار وهو يحدث نفسه ان ينزل ويذهب الى اسيوط على قدميه لتصوره ان القطار في سرعته واقف لا يتحرك . فاللهمَّ تداركه بصبرك وأنزل عليه رحمتك

وجاء فريد الى المنزل فدخل الدار ولم يلتفت الى ابراهيم ولم يقابل صادقاً ولم ينظر الى احد بل صعد توًّا الى غرفة وحيدة ولما وجدها في

النزع الاخير والاحتضار أكبَّ عليها وهو يبكي ويقول :

أي وحيدة . . . . وحيدة . . . أنا فريد . . . . ها أنا فريد . . . أفيقي أنا فريد حضرت اليكِ من منزلكِ في اصوان . . . . . أين نجيب . . . . قومي قدّميهِ اليَّ . . . . أنتِ بخير يا حياتي . . . . يارب ما هذا الاصفرار . . . . . إلهي اين وحيدة . . . . . وحيدة . . . . . وحيدة . . . . . نعم . نعم . انتِ وحيدة قد اصفرّ وجهكِ وانتِ تموتين . . . . . آه . . . .

وانخرط البائس التعس في البكاء . وبكت الوالدتان والخالة والاقارب وتمزقت الجيوب ودُقّت الصدور وعلا النحيب ودوى البيت بالاصوات . وكأن صوت فريد قد ارسل الحياة الى وحيدة ففتحت عينيها فبان بياضها الذي اصفرّ وارتفع صدرها من التنفس وبالجهد الجهيد مدت اليه يدها فطوقته بذراعها وأدنت خدّه منها ورسمت عليه قبلةً بشفتيها الباردتين الصفراوتين المتقلصتين بعد ذاك البهاء والاحمرار والصحة والزهاء ثم ادخلت ذراعها الآخر تحت رقبة نجيب وقالت بكلمات منخفضة متقطعة أنصتَ لها فريد وأسكتَ العويل والصراخ :

فريد . . . . . حضرتَ . . . . . متأخراً . . . . . فها . . . . نجيب . . . . . احتفظ به . . . . . ليكون تذكاري . . . . . عند . . . . . كَ . . . . . وها أنا ما . . . . . ئتةٌ . . . . . فاذكرني له . . . . دائماً . . . . حينما يكبر . . . . . وأو . . . . صيك . . . . به وبنفسك . . . . فلا . . . . تنسني . . . .

ثم سكتت وحيدة بغتة فبغت الحاضرون وأجهشوا في البكاء وأعولوا غير ان وحيدة عادت ففتحت فمها وقالت :

فريد ... سا ... محني ... فقد خالفتك ... مرةً أخرى ... ولد ... ستُ المشدّ ... لاً ... تجملَ ... به في ... اليوم السا ... بع وأقابلك ... فأورثني ما ... ترى ...

ثم نظرت الى والدتها نظرتها الاخيرة وزاغ بصرها في الحاضرات ولفّتْ ذراعها على رقبة فريد بشدة وتشنجت اعصابها فتدحرج نجيب عن ذراعها فاستيقظ وصرخ باكياً

وكانت وحيدة قد اسلمت الروح وقُضي الامر وكأن الطفل الصغير أحس بيتمهِ فبكى وبكت النساء وارتفعت الاصوات واشتدّ الصراخ والعويل واشتعلت نارُ الحزن فاهتزّت الدارُ من هولها وعظُمَ الحداد وكان يوماً عصيباً

وكان مشهد جنازتها رهيباً مؤثراً في النفوس أبكى كل العيون وصدع كل القلوب وهزّ الافئدة شفقةً وحناناً وجزعاً

وان « فهمي » يا فقيدتنا تاهَ بين هذه الكوارث فلم أجد ما ارثيكِ به واجعله تأبيناً لكِ . لذلك أقتصر على كتابة قصتكِ بسواد العينين فيبقى عبرةً لبنات الشرق فلا تغترّ احداهنّ بما يجملها به المشدُ من نحول الخصر . .

ان المليحة من كانت محاسنها من صنعة الله لا من صنعة البشر

* * *

وجلس ابراهيم بجانب فريد وصادق ولازمهما لتسليتهما وسأل مرةً فريداً فقال له انها رحمها الله وأسكنها الجنة عادت الى المشدّ فلبسته ونسيت نصائحي على حد ما قيل :

اذا اراد اللهُ امراً بامرىء وكان ذا عقل وسمع وبصر
أصمَّ أُذنيهِ واعمى عينهُ وسلَّ منهُ عقلهُ سلَّ الشعر

وكأنه تعالى يريد قضاء امره وانفاذ حكمهِ فأغفلها عن كلامي وانساها نصائحي . ولما كان بطنها صار اكبر مما كان وارادت التجمل بلبس المشد فشدته لتصغير خصرها ضغط على الاحشاء فضايق الرحم وكان لا يزال كبيراً بعد الحمل ثم انفجر بسقوطها على الارض وتمزقت جدرانه وحصل النزيف فاستنزف دمها وماتت رحمة الله عليها شهيدة المشدّ وما زالت اوروبا تجني على نفسها وعلى العالم فلا حول ولا قوّة الا بالله العلي العظيم

فهل من معتبر؟ . . . وما يذكرُ إلاَّ أُولو الالباب

﴿ تمَّت ﴾

فهمي ،احمد
جناية اوربا على نفسها والعالم
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
01037765

American University of Beirut

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT
UT VITAM HABEANT ABUNDANTIUS HABEANT
1866

General Library